







فضيلة الشيخ الإمام

محمد متولى الشعراوى

مطبوعات
أخبار اليوم
قطاع الثقافة

دار أخبار اليوم
قطاع الثقافة
جمهورية مصر العربية
٦ ش الصحافة القاهرة
تليفون وفاكس : ٥٧٩٠٩٣٠


hamed khatab



محمد متولي الشعراوي

بسم الله الرحمن الرحيم

من وحي هذا الكتاب

مـــع الـنـبـى ﷺ

بقلم فضيلة الشيخ محمد الشعراوى

مع النبى عاش الإمام الشعراوى صلاة بحب

وحباً بسلوك، وسلوكاً بوصل

ومن هنا للوصال اتصل الإمام بالقرآن تلاوة وتزكية.. وتعليماً وتعلماً حتى أصبح حكيماً بالحكمة والموعظة الحسنة ومن خلال الحكمة أعطاه الله فيض الإلهام ومعجزة البيان ومنهج الحياة لكل زمان ومكان.

فعلى العقيدة الخالصة تربّى

وعلى العبادة الخاشعة تزكّى

وعلى الأخلاق الفاضلة تعطر الزمان به

لذلك أراد فضيلته أن يبعث لمستقبل الأجيال

فيض الحب لأعز حبيب وإلهام الحبيب لأعظم محبوب

مع النبى اليتيم الذى آواه الله، وما قلاه وجعل الآخرة خيراً له

من أولاده ، وأعطاه الله فارشاد فكان نوراً موصولاً يصل به من عاش في أنواره فجاءت إشراقاته نوراً يبدد ظلمات الحياة ، وهذا الكتاب خاطر من النور صاغه الإمام على خلاف المعهود .

وإنما هي فيوضات إلهام وإشارات تحمل أسرار السالك . إلى رياض المصطفى ومدخل لأهل الصدق في عالم التأليف الوجداني حتى يصير الوجد نغماً حاناً يطرب به كل قلب

وفي هذه الخواطر دفاع عن السنة التي هي بيان لكتاب الله كمصدر ثان للتشريع

ومن القرآن والسنة وهما المصدران الأساسيان في إصلاح حركة الحياة ـ نجد المساعد للمصدرين عقولاً خمسة .

أولاً : الإجماع كعقل جمعي

ثانياً : القياس كعقل منطقي .

ثالثاً : الاستنباط كعقل مفكر .

رابعاً : الاستحسان كعقل جمالي

خامساً : والمصالح المرسلة كمطلب اجتماعي

إذن : السنة العمل بها واجب خلافاً للذين لا يفهمون . وإذا فهموا فهم في فهمهم خاطئون . فالذين يقولون « لا اجتهاد مع النص » هم صادقون وإنما الصحيح أن يقال : لا اجتهاد في النص لذلك يقول ابن تيمية «القرآن والعقل نعمتان من الله ، فإذا تعالى العقل في فهم القرآن كان الحاداً ، وإذا تسفل العقل عن فهم القرآن كان نقصاً ، وإذا تساوى العقل مع فهم القرآن كان هدداً بعطاء ،

لذلك يقول الله جل علاه . ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون (٤٤) ﴾ [النحل]

وقال ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون (٦٤) ﴾ [النحل]

وقد جاء نص القرآن يقول : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا (٨٠) ﴾ [النساء]

وقال ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما (٦٥) ﴾ [النساء]

وقال ابن القيم : « أقسم سبحانه وتعالى بنفسه على نفي الإيمان على العباد حتى يحكموا رسوله فيما شجر بينهم » .

ويقول الحق ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم . (٣١) ﴾ [آل عمران]

وقال : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا . . (٧) ﴾ [الحشر]

هذه النصوص جعلت من أقوال الرسول وأفعال الرسول وتقرير الرسول وسلوك الرسول بيانا لكتاب الله هو نوع من وحي يوحى علمه شديد القوى ، فإلى المنكرين للسنة يساق ما نقلنا ونسوق إليهم ما يلي .

- كيف نأخذ من كتاب الله منطق الاعتقاد ومنهج التعبد وسلوك الأخلاق ؟

- هل تريدون الاكتفاء بمنطوق الإجمال في القرآن بغية التحلل

من التفصيل لإرضاء نفس أمارة أو ترجمة لرغبات أعداء بين الحق والعدل الذين قالوا قديماً « إنا لو دمتم لن تملكوا الدنيا فالتمسوا معالم القرآن . لأن فيه العدل » ، والعدل لا يحب الجحود « وفيه الميزان » والميزان لا يحبه الظالم . وفيه « الإخاء » بالانتماء على وحدة المبدأ . وهذا لا يرضي لصوص الليل وأشباح الظلام .

هذه القضية أخذت من خواطر الشيخ في هذا الكتاب وقفة لتأديب أصحاب الفكر المنحرف الذين إذا سعوا في الأرض أكثروا فيها الفساد ، وليعلموا أن الله من ورائهم محيط

رحم الله إمام العصر الذي ما ترك قضية تقلق الدين إلاّ وضع لها الثوابت وأدّب بقلمه المغرضين الذين طغوا بجهلهم وبغوا بظلمهم . وليعلموا أن كتاب الله محفوظ والله حافظه

ومن تعامى عن النور لا يضير النور في شيء . إنما يضير نفسه . ومن تعامى عن الحق لا يضير الحق في شيء ، وإنما وقع في الخزي والعذاب المهين.

فيا أيها الأمين . لك من الله الرحمة . ولك من الناس الدعاء بأن تكون في صحبة النبي يوم لا شفاعة إلا له ، وذلك بقدر حبك له . وبقدر ما أرسلت أسرار القرآن بياناً للناس وسنته سلوكاً للحياة لتحيا به وله وعليه في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

والله ولي التوفيق

محمد السنراوي

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩)﴾ [البقرة]

الفصل الأول

إعداد الكون لرسالة محمد ﷺ

إذا أردنا أن نكتب عن رسول الله ﷺ فإننا نحتاج إلى مجلدات كثيرة.. ذلك لأن سيرة رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ ونواحي العظمة في حياته لا تنتهي. ولكننا سنقدم في هذا الكتاب لمحات أو خواطر عن هذه السيرة العطرة.. نتتبعها بإشراقات. بحسب ما يفيض الله علينا من عطاءات. استمداداً من عظمة صاحب الخلق العظيم.

وقبل أن نبدأ في الحديث عن رسول الله ﷺ. نتحدث عن كيف تمَّ إعداد الكون لرسالة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فالله ـ سبحانه وتعالى ـ أعدَّ هذا الكون كله لاستقبال رسالة خاتم الأنبياء ومنهج الله الذي سيقوم ﷺ بإبلاغه لأهل الأرض مصداقاً لقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ. (٦٧)﴾ [المائدة]

ومنذ بداية الخلق كان اسم محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ والإعداد لرسالته .. فمنذ عهد آدم كان المنهج هو الإسلام .. المنهج الذي نزل به آدم إلى الأرض وتلقَّاه من الحق ـ سبحانه وتعالى ـ مباشرة.. كان إسلام الوجه لله. وإسلام الأمر لله .. ذلك هو منهج السماء منذ بدء الخلق حتى قيام الساعة.. فالأمر بما يصلح

البشرية والتسمي عما يسيء إليها كان المنهج الذي تدور حوله كل الأديان في قوله تعالى :

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) ﴾ [البقرة]

وكل الأنبياء الذين جاءوا بالرسالات السماوية إنما كانوا يسيرون على منهج افعل ولا تفعل يبشرون برسالة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ التي جمعت كل قيم السماء .

وإذا قرأنا القرآن.. نجد أن الحق سبحانه وتعالى يقول

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي[1] قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) ﴾

[آل عمران]

هكذا أخبرنا الحق سبحانه وتعالى في كتابه الكريم أنه أخذ على كل النبيين عهداً بالتبشير بمجيء رسول الله ﷺ، وبتصديق رسالته .. وإذا كان الحق جل جلاله قد أخذ هذا الميثاق مرة واحدة بأن جمع النبيين وهم في عالم الذر . فالثابت أن كل نبي من النبيين أخذ الله عليه ميثاقاً بأن يبلغ أتباعه والمؤمنين به برسالة محمد عليه الصلاة والسلام

فالحقُّ سبحانه وتعالى قد أخذ من أصلاب بني آدم الذرية التي ستأتي حتى يوم القيامة.. وأشهدهم على نفسه وعلى ربوبيته.

---

(١) إصري : العهد الثقيل

وذلك مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

ولذلك جاء في الأثر مما يروى عن ميسرة رضي الله عنه حين سأل رسول الله ﷺ : يا رسول الله متى كنت نبياً ؟ فأجاب الرسول عليه الصلاة والسلام : « وآدم بين الروح والجسد حين أخذ الله منى الميثاق » .

وهكذا شهد رسول الله ﷺ بربوبية الخالق الأعظم مع الخلق جميعاً ، وآدم بين الروح والجسد .. وبين آدم عليه السلام وبين محمد عليه الصلاة والسلام جاء موكب الرسل . يهدى إلى طريق الحق حتى لا يأتي أحد يوم القيامة مجادلاً بأنه لم يكن هناك مُذكِّر بمنهج الله أو مُبشِّر ونذير بما سيلقاه الإنسان في الآخرة.

متى تتدخل السماء ؟

ولقد حمل آدم منهج الله إلى الأرض بتكليف من الله سبحانه وتعالى.. وكان من المفروض أن يُلقِّن آدم أولاده المنهج.. وأولاده يُلقِّنون أولادهم وهكذا. ولكن الغفلة أصابت ذرية آدم فانحرفوا عن المنهج أو نسوه أو حرَّفوه . وسجدوا لغير الله. فكان لابُدَّ أن تتدخل السماء بموكب الرسل.. ليفيق الإنسان من الغفلة ، ويتذكر أن الله هو المعبود وهو الخالق

ولذلك جاءت رسالات السماء في موكب واحد كلها تبشر بالإسلام. وكلها منهجها الإسلام. بأن يعبد الناس إلها واحدا لا إله غيره ولا شريك له.. وأن يتخذوا منهج الله طريق حياتهم لينجيهم من العذاب، ولذلك نجد في سورة الأعراف أن الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩)﴾ [الأعراف]

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥)﴾ [الأعراف]

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ.. (٧٣)﴾ [الأعراف]

وهكذا كل مواكب الرسل جاءت متفقة في القمة الإيمانية أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له.. واحد أحد لا يُعبد غيره.. ثم جاءت بالمنهج

بشارة إبراهيم بمحمد ﷺ

وعندما وقف إبراهيم - عليه السلام - وهو يقيم القواعد من البيت. ويرفع يديه إلى السماء. ويقول:

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩)﴾ (البقرة)

وهكذا كانت استجابة دعوة إبراهيم بلاغاً للبشر بالنبي الخاتم. والبشارة برسول الله ﷺ موجودة في كل كتاب سابق على القرآن الكريم.

في التوراة يُخبرنا الحق سبحانه وتعالى عن ذلك، فيقول جلّ جلاله وهو يخاطب موسى عليه السلام

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ .. (١٥٧) ﴾ [الأعراف]

وعيسى عليه السلام بشّر برسالة محمد . وذلك مصداقاً لقوله تعالى

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ .. (٦) ﴾ [الصف]

بل إنه لم يبشر فقط برسول الله ﷺ . بل ذُكرت أوصافه بدقة في التوراة والإنجيل . بحيث يمكن لأحبار اليهود ورهبان النصارى أن يعرفوا رسول الله دون أن يدلهم أحد عليه.

وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى .

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) ﴾ [البقرة]

بَحيرى يتعرف على الرسول ﷺ

وهكذا كانت رسالة رسول الله ﷺ ، بل وصورته معروفة ومُبشَّرًا بها في الكتب السماوية . ولقد عرفه أحبار اليهود ورُهْبان النصارى قبل أن يُبعث ، وعرفوا موعد رسالته ، وتأكدوا من أنه بُعِث.

ومن ذلك أن أبا طالب عم رسول الله ﷺ خرج في قافلة للتجارة إلى الشام، وكان معه رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وهو لا يزال غلامًا . فلما نزلت القافلة بُصْرَى من أرض الشام وكان بها راهب يقال له «بَحيرى» يتعبد في صومعته ، وكثيرًا ما كانت تمر القوافل من هذا المكان ، فلا يكلمهم الراهب بَحيرى ولا يختلط بهم .

ولكنه في هذه المرة صنع لهم طعامًا كثيرًا.. ثم نزل من صومعته ، وقال لهم : إني صنعت لكم طعامًا يا معشر قريش ، وأحب أن تحضروا كلكم كبيركم وصغيركم ، وعبدكم وحُرّكم . فتعجب القوم وقالوا : كنا نمر كثيرًا فلا تصنع لنا شيئًا . فماذا حدث؟

فقال الراهب : أحببت أن أكرمكم.

واجتمع القوم على المائدة ما عدا رسول الله ﷺ الذي ظل جالسًا تحت شجرة . فقال بَحيرى : يا معشر قريش ، كم يتخلف أحد منكم عن طعامي ؟ قالوا : ما تخلَّف إلا غلام هو أحدث القوم سنًا . قال : ادعوه . ثم قام بَحيرى إلى رسول الله فاحتضنه وجعل ينظر إلى أشياء في جسده .. ولما فرغ القوم من طعامهم

وتفرقوا قال بَحيرى لرسول الله عليه الصلاة والسلام أسألك بحقِّ اللات والعزَّى أن تخبرني عما أسألك عنه . وكان بحيرى قد سمعهم يقسمون باللات والعزى وهم يتحدثون . فقال له الرسول . لا تسألني باللات والعزى ، فو الله ما أبغضت شيئاً قط بُغْضهما

قال بَحيرى . فبالله أخبرني عما أسألك عنه.

قال رسول الله عليه الصلاة والسلام سَلْني عما بدا لك

وظل بحيرى يسأل والرسول عليه الصلاة والسلام يجيبه . وبحيرى يجد كل ما يقوله الرسول عنده في الكتاب ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه

فلما فرغ أقبل عمه أبو طالب فسأله بَحيرى . ما هذا الغلام منك ؟

قال أبو طالب إنه ابني . فَرَدَّ بحيرى ليس ابنك وهذا الغلام ما ينبغي أن يكون أبوه حياً .. فقال أبو طالب . إنه ابن أخي .. فقال بحيرى : فما فعل أبوه ؟.. قال أبو طالب · مات وأمه حُبْلَى به

قال بحيرى صدقت ، ولقد رأيت الغمام يظلله ، وهو جالس أمام الصومعة . ولذلك دعوتكم .. فرجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه من اليهود فوالله لئن رأوه وعرفوا عنه ما عرفت ليبغُونه بالشر . إن ابن أخيك هذا سيكون له شأن عظيم

وحين سمع أبو طالب ذلك أسرع برسول الله ﷺ إلى مكة.

وفي حديث آخر عن ابن سلام ـ أحد أحبار اليهود ـ أنه جاء

إلى رسول الله ﷺ وقت ظهر إسلامه فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله والله إني لأعرف أن محمداً رسول الله كمعرفتي لابني ومعرفتي بمحمد أشد . ثم قال للرسول : «إن اليهود قوم بُهت[1] وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني يبهتوني».

وحين سأل رسول الله ﷺ اليهود عن ابن سلام وقال : ما تقولون في ابن سلام ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا وحبرنا[2] الجليل . قال : أرأيتم إن أسلم عبدالله بن سلام؟ قالوا : أعاذه الله من ذلك فخرج عبدالله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. قالوا : شرنا وابن شرنا وتنقصوه . قال : هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله»[3]

بل إن يهود المدينة كانوا يعرفون الزمن الذي سيكلف فيه محمد عليه الصلاة والسلام بالرسالة ، ولذلك كانوا يقولون للأوس والخزرج . أتى زمن رسول سنتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم .

إعداد الكون للرسالة

وهكذا نرى أن الكون أعد إعداداً إيمانياً لاستقبال رسالة محمد ﷺ وقد يقال : ما فائدة التبشير برسالة محمد بالنسبة للناس ممن سيهرتون قبل أن يبعث ؟

---

(١) بهت : كاذبون مفترون.
(٢) الحبر : العالم.
(٣) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/٥٢٦).

نقول : إن الحق سبحانه وتعالى شاءت إرادته ألا يموت أحد من المؤمنين الذين لم يعاصروا رسول الله ﷺ. إلا وهو مُبشَّر به ومؤمن بأنه قادم . وكان هذا الإعداد الإيماني للكون لاستقبال رسالة محمد عليه الصلاة والسلام . ليبين لنا عظم شأن هذا النبي الخاتم عند الحق سبحانه وتعالى.

وكان هذا الإعداد الإيماني جزءاً من الإعداد الكوني لرسالة محمد عليه الصلاة والسلام. أما الجزء الأخير فقد حدث في العام الذي وُلد فيه رسول الله ﷺ. أراد الحق سبحانه وتعالى أن يخبر الأرض بأن نبياً خاتماً سيأتي. وأن الله هو الذي سيحفظ رسالته. وأن هذا النبي سيَبُثُّ أركان الظلم في الكون.. وأن منهجه إذا اتبع فإنه يمحو الظلم ويأتي بالعدل. فكانت هناك إشارة في عام مولده . وإشارة في يوم مولده ﷺ.

أما الإشارة التي حدثت في عام مولده فهي حادثة الفيل . عندما أراد أبرهة ـ وهو أحد قواد الحبشة ـ أن يهدم الكعبة بيت الله الحرام. وقيل : إن أبرهة كان قوياً جباراً غزا اليمن. عندما سمع أن الناس تحج إلى بيت الله الحرام أراد أن يبني بيتاً باليمن لتحج إليه الناس بدلاً من مكة.

فجاء أعرابي وألقي قاذورات في هذا البيت.. فثار أبرهة وصمم علي أن ينتقم بهدم الكعبة[1]. وزيَّن له الشيطان عمله، فهنا هو أسلوب الشيطان في تزيين الباطل. قد بيَّنه لنا القرآن الكريم في قوله تعالى .

(١) انظر: الدر المنثور للسيوطي (١/ ١٢٦).

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (48)﴾ [الأنفال]

الشيطان وأبرهة

وهكذا يوضح الله لنا في القرآن الكريم كيف يزين الشيطان السوء للناس ليحذرنا منه. الشيطان قال لأبرهة: أنت قوي شديد البأس. وهؤلاء عرب رُحّل لا حضارة لهم ولا قوة. اذهب واهدم البيت فلن تجد أحداً يدافع عنه. وأعد أبرهة جيشاً قوياً من الأفيال والرجال الأشداء. وانطلق مزهواً بقوته ليهدم بيت الله الحرام.

وحين وصل إلى مكة ورأى أهلها هذا الجيش الهائل ومعه الأفيال انسحبوا وهربوا إلى الجبال. وتركوا البيت بلا مُدافع. وكان لله في ذلك حكمة. فلو أن أهل مكة أحاطوا بالبيت ليدافعوا عنه وهُزم أبرهة لقيل قلة شجاعة هزمتْ جيش أبرهة. بل لو بقي مدافع واحد أمام البيت لرُويت عنه الأساطير.

ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يترك جميع البشر بيته بلا حماية. ووقف أبرهة ومعه جيشه الكبير. والبيت لا يحميه أحد من البشر.

وهنا حدثت المعجزة.. فإذا بالسماء تمتلئ طيراً، وإذا بهذه الطيور تلقي حجارة صغيرة تفني جيش أبرهة وتُفتته.. وهكذا فني الجيش الهائل في لحظات.. وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (1) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي

تضليل (٢) وأرسل عليهم طيرا أبابيل (٣) ترميهم بحجارة من سجيل (٤) فجعلهم كعصف مأكول (٥) ﴾ [الفيل]

ولقد أراد بعض العلماء أن يشككوا الأمر على الله . فقالوا : إن الجراثيم هي التي فتكت بجيش أبرهة. ولكن هذا غير صحيح؛ لأن حادثة الفيل وقعت في العام الذي ولد فيه رسول الله ﷺ.. ورسول الله بُعث في الأربعين.. فلو أن هذه الآية نزلت بغير ما حدث فعلاً . لكان سكان مكة الذين يبلغون من العمر خمسين سنة أو ستين سنة أو سبعين سنة أو أكثر. ومنهم الكفار الذين يهمهم أن يطعنوا في هذا الدين.. لكانوا قالوا: لقد شهدنا عام الفيل ولم نر طيرا تأتي ولا حجارة ترمي.

ولكن لأن الطير جاءت فعلاً. وألقت حجارة من سجيل[1] فلم يستطع أحد أن يُكذِّب ما روته الآية الكريمة.. ولابد أن نعلم أن الله قادر على كل شيء .. فلا نحاول نحن أن نضع تفسيرات تُقلل من قدرة الله جلّ جلاله ولا من قوته. ولا نحاول أن نجعل معجزات الله تخضع لأسباب الدنيا ، ولا لما تتسع له عقولنا. فهي أكبر من ذلك بكثير.

المنهاج القويم

ما معنى ما حدث ؟.. معناه أن الحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نعرف أن رسول الله ﷺ الذي سيولد في هذا العام سيأتي بمنهج تحفظه السماء . ولنْ تخلى عنه البشر جميعا. فلن يستطيع أحد

(١) السجيل: الطين المتحجر

من البشر أن يُحرك أو يغيّر او يبدل او يُخفي شيئاً من القرآن.. منهج رسول الله ﷺ.. لأن هذا المنهج محفوظ بقدرة الله عز وجل.. وما يحفظه الله لا تصل إليه قدرة البشر.

ولذلك نجد شيئاً عجيباً.. بينما الخط الإيماني في هبوط نجد أن خطّ حفظ القرآن في صعود .. بل نجد الحق سبحانه وتعالى يسخر لحفظ القرآن مَنْ لا يؤمنون به . فنجد عالماً ألمانياً يكتب القرآن في صفحة واحدة .. ومؤسسة في اليابان تطبع القرآن طباعة فاخرة . ومن كل أرجاء الأرض مَنْ يخدمون القرآن من غير المسلمين . بينما لا يفعلون ذلك في كتبهم هم.

ونجد مَنْ يتبارى في تزيين المصحف وإخراجه بشكل جميل وهو لا يحفظ إلا بعض آيات القرآن.. هذا الخط الإيماني هو من الله سبحانه وتعالى الذي حفظ كتابه الكريم من عبث البشر إلى يوم القيامة.. مصداقاً لقوله تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر]

مولد النور

ثم نأتي بعد ذلك إلى يوم مولد رسول الله ﷺ.. في هذا اليوم اهتزت حصون الظلم في الدنيا.. وإذا بالنار المقدسة التي يعبدها المجوس تنطفىء.. وإذا ببحيرة ساوة التي كان يقدسها الفرس تغيض[1].. وإذا بإيوان كسرى معقل الظلم والكفر في الدنيا يتصدع وتتساقط شرفاته

---

(١) غاض الماء: نقص وذهب في الأرض.

هل حدث ذلك بفعل فاعل ؟ أم بقدرة الله وحده ؟

لقد حدث بقدرة الله . لنعرف أن الحق الذى ولد نبيه فى هذا اليوم سيدُكُّ حصون الظلم فى الدنيا . وأن المنهج الذى سيأتى به هذا الرسول الكريم إذا اتبع بحقٍّ وإيمان صادق . وطُبِّق كما جاء فلن يبقى ظلم على الأرض . وكان هذا إشارة كونية إلى الدين الجديد ، وما يحمله إلى هذا العالم .

ولقد حدث . فعندما نزل القرآن كان العرب أمة متفرقة وقبائل متناحرة ، لا حول لها ولا قوة . يقتل بعضها بعضاً ، ولا تقف الحروب بينها . وكانوا يعيشون في صحراء جرداء لا مطمع فيها لأحد.. ثم جاء الإسلام ليجعل هؤلاء العرب يسودون العالم . ويهزمون أكبر قوتين فى هذا الوقت . وهما . الفرس والروم.

كيف حدث ذلك كله؟ هل أتى القرآن للعرب بقنبلة ذرية؟ أو بسلاح سرى جديد؟ أو بكشف علمى لم يصل إليه أحد؟

لم يحدث هذا.. ولكن القرآن جاء بمنهج من الله جل جلاله.. لو اتبعه الإنسان لساد الدنيا كلها.. ولأصبح سيداً لهذا الكون.. ولقد اتبع العرب منهج الله ، وإذا بهم فى سنوات قليلة يصبحون سادة الأرض أصحاب حضارة وقوة . كلمتهم مسموعة.. وقوتهم مرهوبة.. وهم رواد التقدم والحضارة في كل شيء.

وهكذا منهج الله . من اتبعه بحق فقد ساد.. ومن تركه فقد خاب.

عالمية الرسالة

بعد هذا الإعداد الإيماني الذي أعده الله في كونه لرسوله.. بأن كل أنبيائه يُبشّرون بالرسول . وبعد أن ذكر أوصاف رسول الله ﷺ في الكتب السماوية التي سبقت القرآن . وبعد أن جاءت حادثة الفيل لتُلفت العرب عند حدوثها. ولَفتت الدنيا كلها بذكرها في القرآن الكريم إلى قدرة الله سبحانه وتعالى . وبعد أن زُلزلت أكبر معاقل الظلم في الدنيا.. كان لا بد من الإجابة عن سؤالين هامين :

السؤال الأول : لماذا جاءت رسالة رسول الله ﷺ للعالمين أو للدنيا كلها؟ ولم تأت لقومه خاصة .. لقد كان الأنبياء قبل رسول الله عليه الصلاة والسلام يُرسلون إلى أقوامهم فقط ليعالجوا داءات معينة في الكون . حتى أنه في وقت واحد كان هناك أكثر من رسول .. فكان هناك إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء ، وكان هناك لوط عليه السلام . كلاهما بُعث في وقت واحد .. إبراهيم ليعالج عبادة الأصنام .. ولوط ليعالج الشذوذ الجنسي الذي تفشّى بين قومه

نقول . إنه في الأوقات التي أُرسل فيها الرسل السابقون كانت المجتمعات منعزلة عن بعضها البعض. وكانت وسائل المواصلات بطيئة وشاقة ، وتكاد تكون شبه معدومة . حتى أن هناك قوماً كانوا يعيشون في مكان ما . لا يعرفون شيئاً عن أناس يعيشون في مكان بعيد عنهم

ولذلك اقتضتْ حكمة السماء أن يُرسل كل رسول إلى قومه.. ليعالج داءً أو داءات معينة في مجتمع معين .. ولكن الله سبحانه وتعالى في علمه أن الكون سيتوحد . وأنه جلّ جلاله سيتيح

للبشر من أسرار كونه ما يجعل الاتصالات سهلة.. والمسافات البعيدة قصيرة . فيتوحد العالم في مشكلاته، وهذا ما نراه الآن

فالحادث الذي يقع في دولة ما . يعرفه العالم كله بعد دقائق.. والداء يظهر في أمريكا فينتقل سريعاً إلى أوربا. وبسرعة أكبر إلى أفريقيا وآسيا وباقي الدول.. حتى أصبحت مشاكل العالم شبه واحدة. فنرى مثلاً مشكلة العنف والإرهاب تواجه الدنيا كلها.. ونرى مشكلة المخدرات لا تقتصر على شباب دولة معينة ، بل تمتد إلى دول العالم أجمع .. وهكذا توحدت الداءات في الدنيا كلها.. فكان لا بد من وحدة المعالجة.. لأن المشاكل في العالم واحدة، فالعلاج يكون موحداً

وهكذا جاءت رسالة خاتم الأنبياء والمرسلين لتعالج مشاكل العالم كله.. ولقد كان من الواجب بعد كل هذه المقدمات أن يُحس الناس بأهمية الإسلام .. وبما جاء به القرآن كمنهج .. ولكنهم بدلاً من ذلك فإن كثيراً من أهل الأرض الذين يسمعون عن الإسلام والقرآن .. لا يحاولون أن يقرأوا عنه تلك القراءة الواعية التي تنير أمامهم الطريق

ونجد الواحد منهم مثلاً يهتم برحلة سياحية سيقوم بها ، فيقرأ أدق التفاصيل عن البلاد التي سيزورها. ويسأل من سبق لهم أن زاروها. ولكنه لا يحاول أن يتعلم دينه أو أن يفهم عن الإسلام ما تقوم عليه الحياة

ولقد خلق الله سبحانه وتعالى هذا الكون . وأعده للإنسان قبل أن يخلق الإنسان .. وجعل الإنسان هو السيد ، وكل الكون يخدمه وكله مُسخّر له .. ولكن الكثيرين لا يسألون أنفسهم ؟ مَن الذي سخر؟ ومن الذي خلق؟

السؤال الثاني : لماذا كان رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء ؟ لأن بعثته عليه الصلاة والسلام اكتملت الأديان وتمام النعمة رضيهما عز الرضى وبعثت الرضى تكون مظلة الإسلام التي ترفرف على العالمين . اكتمل المنهج.. مصداقاً لقوله تعالى

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا .. (٣) ﴾ [المائدة]

ويقول رسول الله ﷺ : « مثلي ومثَلُ الأنبياء من قبلي كمثَل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله ، إلا موضعَ لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناسُ يطوفون به ويعجبون له ، ويقولون هلا وضعتَ هذه اللبنة . فأنا اللبنة . وأنا خاتم النبيين »[1]

والله سبحانه وتعالى قد جعل معجزة رسول الله ﷺ هي منهجه ليبقى المنهج محفوظاً إلى يوم القيامة بالمعجزة . فالكتب السابقة ائتمن الله عليها خلقَه . ماذا فعلوا بها ؟ .. نَسُوها وما لم ينسوه حرّفوه .. وما لم يُحرّفوه أخفوه .. وما لم يُخفوه بدّلوه وغيّروه

وهكذا لم يكُن البشر مأمونين على منهج السماء ، لأن هوى النفس تدخل .. وأطماع الدنيا غيّرت وبدّلت . ولكن الحق سبحانه وتعالى حفظ القرآن الكريم من أي تغيير أو تبديل.

القرآن إعجاز متجدد

وجعل الله سبحانه وتعالى منهج رسول الله ﷺ معجزة متجددة . فالقرآن له عطاء لكل جيل .. وهناك أشياء بيّنها رسول الله ﷺ .. وشرحها وفسرها تفسيراً دقيقاً ، وهذه هي التي تتصل بالعبادات .. فلم يترك الرسول عليه الصلاة والسلام تشريع عبادة إلا وبيّنه تفصيلاً

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٨٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

ولكن هناك آيات من القرآن الكريم لم يكن عقل المعاصرين لرسول الله ﷺ يطيقها .. ومن هنا تركها رسول الله عليه الصلاة والسلام لتبين إعجاز القرآن لكل جيل . كذلك ما يمضي زمن إلا وتظهر معجزة جديدة للقرآن لم نكن نلتفت إليها.

يقول الحق ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) ﴾ [الكهف]

وعندما اكتشفت كروية الأرض . تبيّنا أن القرآن الكريم كان أول من أشار إليها في خَلْق الليل والنهار. ولقد أشار هذا الكتاب إلى كروية الأرض ودورانها حول نفسها في آية واحدة في قوله تعالى

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢) ﴾ [الفرقان]

والشيء يخلف الشيء ، أي يأتي بعده تماماً كدوريات الحراسة . دورية تخلف دورية .. أو ورديات العمل في المصانع كل منها تخلف الأخرى .. ولكن لا بُدّ من بداية في كل هذا .. فتكون الدورية الأولى للحراسة لا تخلف من سبقها وتكون الوردية الأولى في المصنع عندما يبدأ العمل لا تخلف وردية أخرى : لأنها بداية العمل في المصنع.. ولكن الحق سبحانه وتعالى قال

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً . (٦٢) ﴾ [الفرقان]

إذن فلا بُدّ أن يخلف الليلَ النهارُ ساعة الخلق ولا يتم هذا إلا إذا خلق الليل والنهار معاً على سطح الأرض . ولا يحدث ذلك إلا إذا كانت الأرض كروية ففي ساعة الخلق يوجد الليل والنهار على الأرض في لحظة واحدة فيكون كل منهما خِلْفة للآخر . ولا يخلف الليل النهار إلا إذا كانت الأرض تدور حول نفسها . فلو

أن الأرض ثابتة .. لبقى الجزء المنير نهاراً ، وبقى الجزء المظلم ليلاً دائماً.

إذن: فلابُدَّ من حركة دوران الأرض. ويتطور العلم ويستطيع أن يُصوِّر الجنين في بطن أمه .. فيجد أن القرآن قد صور أطوار الجنين في بطن أمه تصويراً علمياً متكاملاً .. ويكتشف الطب أن مركز الإحساس في الإنسان هو الجلد ؛ لأن أطراف الأعصاب موجودة تحت الجلد مباشرة .. فيجد الآية الكريمة .

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ (٥٦) ﴾ [النساء]

والآية عن الخلود في العذاب لأهل النار. وهناك معجزات كثيرة في القرآن الكريم كشف الله عنها . ومعجزات كثيرة سيكشف عنها للأجيال القادمة .. كل هذا يجعل معجزات القرآن متجددة دائماً .. بحيث يكون له في كل عصر معجزة.

ولقد فرح الكون كله لمولد رسول الله ﷺ.. لأنه جاء بمنهج يعيد انسجام الإنسان مع الكون ومع النفس .. علماً بأن الكون كله مسخر في الطاعة.. ما عدا الإنس والجان فلهما الاختيار.

ولا يحسب أحد أن الكون قد قهر من الله سبحانه وتعالى على أن يكون مقهوراً .. بل إن الله شاء عدله أن يكون ذلك القهر عن اختيار ولو كان قهراً ما وضع الله سبحانه وتعالى أمامه الاختيار .

وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

ومن هنا نرى أن الحق سبحانه وتعالى عرض الأمانة أو حرية

الاختيار على كل مخلوقاته .. ولكن المخلوقات الأخرى لا تستطيع أن تؤدي حق الأمانة فقالت: يا رب اخترنا أن نكون مقهورين. أما الإنسان فقد غرّه عقله.. فطلب حرية الاختيار.

الكون والإنسان

إذن.. الكون كله مُسبِّح ما عدا الإنسان.. فمنه المسبِّح.. ومنه غير المسبِّح.. وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. (١٨)﴾ [الحج]

وهكذا عندما جاء ذكر البشر اختلفت الطاعة، بينما الكل مُسبِّح .. ولذلك فقد سمع رسول الله ﷺ تسبيح الحصى .. وحنّ إليه جذع النخلة الذي كان يستند عليه وهو يعظ الناس .. فأصدر أنيناً عندما بني منبر لرسول الله ليخطب عليه .. وكان الطعام يكلمه .. وشكا له الجمل من قسوة الإنسان.. ونبع من بين أصابعه الماء.

كل هذه الأشياء المسبّحة فرحت برسالة محمد ﷺ .. ولكن الإنسان الذي جعله سيد هذا الكون .. وخلق له كل هذه النعم .. هو الذي قاوم وهو الذي كفر .. ولذلك فإن كل ما في هذا الكون من جماد ونبات وحيوان يلعن الكافر. حتى جسد الإنسان الذي سخره الله له ليطيعه إذا أراد الطاعة، ويطيعه إذا أراد المعصية.

فاللسان قادر على أن ينطق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.. وقادر على أن ينطق كلمة الكفر والعياذ بالله.. واليد تطيع صاحبها وهو يبطش بالناس. وتطيعه وهو يقيل إنساناً من

عثرته أو يساعد عاجزاً أو ضريراً على عبور الطريق

ولكن كل هذه الأعضاء في جسد الإنسان تأتي يوم القيامة وتشهد عليه وتلعنه . مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) ﴾ [النور]

ولقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن تنزل رسالة الإسلام في مكة.. تلك البقعة المباركة التي اختارها سبحانه وتعالى بيتاً له.. ورغم أنها بقعة صغيرة من الأرض الواسعة التي خلقها الله .. إلا أن الإنسان أبى بكفره إلا أن يُدنّس هذا البيت . ويجعل فيه العبادة لغير الله في موضع هو بيت الله الذي تمّ باختيار الله الأصنام التي تُعبد من دون الله.

فشاء الحق سبحانه وتعالى أن يبدأ هذا الدين بتطهير بيته وأن تكون صيحة الإيمان الأولى في آذان سادة قريش الذين أعطاهم البيت سيادة على العرب كلهم . هؤلاء الذين كانوا أئمة الكفر وواضعي الأصنام في بيت الله الحرام . والذين تجبّروا في الدنيا . مكان مجتمعهم مضيعاً عن عبادة الله . بسبب المعاصي والكفر والشرك . وجاءت صيحة الإيمان لتزلزل هذا كله وتعطي للعباد القيم الخالدة من هذا المكان الذي يتصل بقارات الأرض براً وبحراً فهي ملتقى الانطلاق ومنه إرسال الرسالة إلى العالمين .

على أننا قبل أن نبدأ بالتحدث عن الرسالة .. لابد أن نتحدث عن الرسول وعن أوصافه ممن عاصروه ولماذا كان على خُلق عظيم ولماذا اختاره الله سبحانه وتعالى أن يكون ميتماً وأن يكون أمياً .. وأن يكون يتيماً ؟

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ
يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ
السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا (٩٥) ﴾
[الإسراء]

الفصل
الثاني

لماذا كان الرسول بشراً ؟

إن مكة التي شهدت مولد الرسول وأحداث الرسالة.. لها مكانة خاصة عند الله سبحانه وتعالى . ذلك أن أول بيت وُضع للناس كان في مكة المكرمة.. يقول الحق

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) ﴾
[آل عمران]

بناه الملائكة وعرّفوه لآدم وحواء ليقوما بعبادة الله فيه.. وهو مكان للعبادة فقط . والصلاة التي هي الصلة بين الله وعباده. ولقد تلقّى آدم المنهج من الله سبحانه وتعالى مباشرة.. وأؤتمن عليه لكي يبلغه لأولاده

ولكن مع الزمن غفل أولاد آدم وبدّلوا في منهج الله. وعبدوا الأصنام والأحجار والشمس والنجوم والحيوانات وغير ذلك من ألوان الشرك بالله ولأن الغفلة أصابت أولاد آدم فكان لا بُدّ من رسول يأتي إليهم يُذكّرهم بمنهج الله سبحانه وتعالى . ويلفتهم إلى عبادته

وبمضي الزمن وغفلة الناس عن البيت .. ضاعت العلامات التي تدل على مكانه .. فبيتُ الله هو قطعة الأرض التي يقوم عليها الحرم وما فوقها .. فالجو فوق الكعبة المشرفة ، وإلى عنان السماء هو امتداد لبيت الله سبحانه وتعالى .. ولذلك يُبنى دور ثانٍ ودور ثالث في الحرم وهذا ينطبق على كل بيت من بيوت الله

ذلك أن المكان الذي يعلو المسجد امتداد للمسجد ، ومنه تتنزَّل الملائكة على المصلّين ولذلك فإن المساجد أو الزوايا التي تقام

أسفل العمارات لا تعتبر مساجد إلا إذا كانت الضرورة تقتضي الصلاة فيها. ذلك أن فوق هذه المساجد التي تبنى في أسفل العمارات، وفي شقق العمارة توجد الحائض ... غير المتطهرين

ومعنى ذلك أن الملائكة تمتنع عن النزول .. ولذلك فإن الصلاة في هذه الزوايا. كصلاة الجماعة في أي حجرة من الحجرات إلا إذا اقتضت الضرورة ذلك، لأن الضرورات تبيح المحظورات.

بيت الله الحرام هو المسجد الوحيد الموجود في الأرض باختيار الله سبحانه وتعالى .. فمساجد الأرض كلها هي أماكن للعبادة باختيار خَلْق الله، أما المسجد الحرام في مكة فهو باختيار الله وحده. ولذلك كان المسجد الحرام هو قبلة مساجد الأرض كلها وكل المصلين من جميع أنحاء الأرض يلتقون في ذلك المسجد الذي اختاره الله للعبادة باختياره هو. ولذا كانت الأرض مسجداً للمسلمين مصداقاً لقول رسول الله ﷺ: «وجعلت لي الأرض مسجداً وتربتها طهوراً»[1].

إبراهيم ومكان البيت

حينما أصابت الخلفة لولاد آدم قيل إن عناصر التعرية والطبيعة طمستْ العلامات المميزة لمكان بيت الله الحرام. وقيل: إن الطوفان في عهد نوح وهو الطوفان الذي أغرق الأرض كلها قد ضيَّع العلامات التي تحدد مكان البيت وتُعينه للناس

وعندما نريد أن نميِّز بقعة في الأرض ونعرفها للناس.. فهناك

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (٣٣٥)، ومسلم في صحيحه (٥٢١) عن جابر بن عبد الله.

عاملان أساسيان: المكان والمكين. فالمكان هو البقعة من الأرض التي نريد أن نميزها وأن نعرفها للناس. والمكين هو العلامة التي يهتدي بها الناس إلى المكان. ولذلك فإن مكان بيت الله الحرام بقي كما هو لم يؤثر فيه شيء. ولكن المكين أو العلامة التي تدل الناس هي التي ضاعت أو طمست. فأصبح المكان غير معروف للبشر.

حينئذ فإن الله سبحانه وتعالى هدى إبراهيم عليه السلام.. وبيّن له مكان البيت.. لماذا؟ ليرفع القواعد من البيت حتى يستطيع الناس أن يهتدوا إلى مكانه. إذن: فمكان بيت الله الحرام موجود في الأرض منذ خلق الله الأرض. ولكن المكين أو العلامة المميزة هي التي طمست. مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦)﴾ [الحج]

ومعنى بوّأنا أي: بيّنا. والحق سبحانه وتعالى بيّن مكان البيت لإبراهيم عليه السلام. ورفع إبراهيم القواعد. أو ذلك الجزء المرتفع عن الأرض. الذي يدل على مكان البيت. وهو الكعبة المشرفة.. فالمسجد الحرام ليس هو الكعبة المشرفة.. بل الكعبة هي التي تدل الناس على البيت.

طهارة المسجد الحرام

الله سبحانه وتعالى خصّص بيته في هذا المكان في الأرض للعبادة.. فلذلك لا يجب على أي إنسان أن يدخل المسجد الحرام إلا أن ينشغل بعبادة ربه ويعتزل الدنيا.. ويخلع الدنيا مع نعليه ويُلقيها خارج بيت الله الحرام، ويتفرغ للركوع والسجود وذكر الله

ولكن الغفلة التي اصابت الإنسان جعلته يضع في بيت الله ما يُعبد من دون الله. ادخلت الأصنام إلى بيت الله يعبدها الإنسان وهي من حجر يصنعه. ولم يفكر أحد كيف يمكن أن يصنع المخلوق إلهه. وكيف يمكن أن يكون الإله حجراً لا حول له ولا قوة. ولكنها الغفلة والبُعد عن منهج الله.

فالنفس تريد أن تعيش حياتها حسب هواها. تظلم وتسرق وتفعل كل فاحشة وتُطلق لشهواتها العنان. وأقصى أمنية الكافر أن يجد إلهاً بلا منهج.. أي.. إلهاً لا يقيده بمنهج.

حينئذ هو يفعل في الحياة ما يشاء. وفي نفس الوقت يرضي فطرة التدين وفطرة الإيمان التي خلق الله الناس عليها. والتي لا تستقيم حياة الناس بدونها. وكانت رسالة رسول الله ﷺ لتطهير بيت الله من كل شرك.. وطهارة الإنسان قلباً ونفساً وفكراً حتى تكون العبادة فيه خالصة لله سبحانه وتعالى إلى أنْ يرث الله الأرض ومنْ عليها.

وجاء محمد رسول الله ﷺ إلى الكون.. بعد أن مهَّد له وبه شهيداً كاملاً.. مَن بشّر به النبيون.. وذكر الله سبحانه وتعالى صفاته في الكتب السماوية التي نزلت قبل القرآن.. ليعرفه أهل الكتاب.. فلا تكون لأحد يوم القيامة حجة في أن لا يؤمن به. ولذلك كانت أوصاف رسول الله ﷺ موجودة في التوراة والإنجيل.

ولما كان المؤمنون في كل زمان ومكان يحتشاقون للتعرف على ملامح رسول الله ﷺ، فإننا نذكر ما قاله علي بن أبي طالب لنرى طمأ محبة أهل الإيمان للرسول الخاتم عليه الصلاة والسلام.

أوصاف الرسول ﷺ

علي بن أبي طالب هو الخليفة الرابع لرسول الله ﷺ وأول من آمن به من الصبيان.. ومعلوم أن أبا طالب عم رسول الله وولده علي رضي الله عنه هو الذي كفل الرسول ﷺ.. وكان رسول الله عليه الصلاة والسلام يرسل عليا إلى أهل اليمن ليدعوهم للإسلام.. وكان يحضر مجلس القوم الذين كانوا يستمعون إلى كلام علي رضي الله عنه أحد أحبار اليهود.

فقال الحبر اليهودي عليا: صف لنا رسول الله أبا القاسم محمد بن عبدالله. وكان الحبر اليهودي يمسك في يده كتابا. وكلما تحدث علي رضي الله عنه قلب اليهودي صفحات الكتاب.. كأنه يراجع الأوصاف التي ينطقها علي رضي الله عنه

قال علي بن أبي طالب. إن رسول الله ليس بالقصير ولا بالطويل البائن ـ أي: أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن يميل إلى القصر. ولا زائد الطول بشكل لافت للنظر.

ويضيف عليٌ. رسول الله ليس بالجعد ولا بالسبط الشعر. أي. أن شعر رسول الله ﷺ كان أسود اللون.. وسطا بين النعومة والتجعد.

ويقول علي رضي الله عنه: رسول الله ﷺ ضخم الرأس، مشرب لونه حمرة. أهدب الأشفار. سهل الجبين.

أي. أن رسول الله ﷺ كان وجهه في لون الزهر أبيض يميل إلى الاحمرار.. ورموش عينيه طويلة، وجبهته واسعة ناعمة.

ويقول علي رضي الله عنه. إن رسول الله ﷺ شثن الكفين والقدمين، بعيد ما بين المنكبين.

أي : أن عظام رسول الله ﷺ كانت ضخمة عند ملتقى العظام في الجسم ، كالركبتين والمرفقين والمنكبين .. وهذا دليل على قوة البدن .. وقدما الرسول عليه الصلاة والسلام وكفّاه كانت ضخمة وأصابعه قوية

ويُكمل علي رضي الله عنه الصورة فيقول : إذا مشى يتكفأ، كأنما ينزل من صَبَبٍ لم أرَ قبله مثله ، ولم أرَ بعده مثله.

أي . أن الرسول عليه الصلاة والسلام عندما يسير كانت الأرض تنحدر أمامه خشوعاً فيميل للأمام في سيْره

الحبر يعلن إسلامه

وهنا سكت علي بن أبي طالب رضي الله عنه فأكمل الحبر اليهودي الحديث من الكتاب الذي كان معه فقال إن رسول الله في عينيه حمرة حسن اللحية حسن الفم تام الأذنين . يُقبل جميعا ويُدبر جميعاً.

فردّ عليه علي بن أبي طالب . هذه والله صفة رسول الله عليه الصلاة والسلام.

فقال الحبْر اليهودي وهو جناه . أي : منْك للأمام

فقال علي . هو الذي قلت كأنه ينزل من صَبب ، أي . أن الأرض تنحدر أمامه .. فقال الحبر اليهودي . إن هذه الصفات في سِفْر آبائي هذا وأشار إلى الكتاب الذي يحمله.

ثم قال الحبر اليهودي ومكتوب أيضاً ومولده يُبعث من حرم الله وأمنه وموضع بيته . ثم يهاجر إلى حرم يُحرّمه هو

«يقصد الحرم النبوي في المدينة المنورة».. ويكون لهذا الحرم حُرْمة كحرمة الحرم الذي حرمه الله.

ويستمر الحوار بين علي بن أبي طالب والحبْر اليهودي، عن رسول الله ﷺ عن ما يرد في أسفار التوراة.. وحينئذ يعلن الحبر اليهودي، أشهد أنه نبي الله، وأنه رسول الله ﷺ إلى الناس كلهم.

هيئة الرسول ﷺ

ولقد كان رسول الله ﷺ فخمًا مُفخّمًا.. يتلألأ وجهه كوجه القمر ليلة البدر.. إذا سرّه شيء يمتلىء بشْرًا.. أزجُّ الحواجب أي: دقيقتها.. وبين الحاجبين فرْق.. وفي هذا الفرق عرْق يظهر إذا غضب رسول الله عليه الصلاة والسلام من شيء.

ولرسول الله ﷺ نور يعلوه، هالة من الضياء تُشع من فوقه، شديد سواد العينين.. واسع الفم.. سَهْل الخدين.. أي: لا يوجد في أحد خدّيْه علو أو بثور أو ورم.. مُفلَّج الأسنان، أي: أن أسنانه مستوية بينها مسافات قليلة دقيقة. عريض الصدْر ما بين المنكبين. عنقه في صفاء الفضة.

وفي ظهره خاتم النبوة الذي تحدثت عنه الكتب السماوية السابقة للقرآن. وكان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهًا، وأعظمهم خلُقًا. إذا جلس يكون كتفه أعلى من جميع الجالسين وإذا صافحه أحد امتلأت يد المصافح برائحة زكية كأنها العطر.

فقد كانت رائحة رسول الله ﷺ أطيب من العطر.. وكان عرق رسول الله عليه الصلاة والسلام أزكى من العطر.. وكانت رائحة

رسول الله ﷺ تسبقه إلى أي مكان يذهب إليه.

لذلك يقول الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله عنه: كنا نعرف رسول الله ﷺ إذا أقبل بطيب رائحته.. لقد كانت رائحته الزكية تسبقه إلى أي مكان.. فإذا جلس ملأت المكان.

ويصف هند بن أبي هالة بن السيدة خديجة قبل زواجها من رسول الله عليه الصلاة والسلام .. يصف رسول الله عليه الصلاة والسلام فيقول: خافض الطرف .. نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء .. يبدأ من يلقاه بالسلام .. متواصل الحزن دائم الفكر .. طيب الرائحة .. لا يتكلم في غير حاجة .. أي: أن الرسول الكريم يحزن على الذين لم يدخل قلوبهم نور رسالته التي جاءت لإسعاد البشرية.

من شمائل الرسول ﷺ

وكان رسول الله عليه الصلاة والسلام لا يملُّ التأمل.. ليست له عادات مميزة بحيث تسيطر عليه وتكون ضعفاً له.. لا ينطق إلا في الحق.. كلماته بلغت دقيقة.. لا زيادة فيها ولا نقصان.. كلماته لا تُهين أحداً ولا تجافي إنساناً.. يُعظّم أمر النعمة .. ولا يذم أيّ شيء يذوقه ولا يمدحه .. حتى لا يقال عنه إنه يُفضّل طعاماً على طعام .. فكل رزق الله عنده يستحق التعظيم.. لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها .. إذا تحدث أتمّ الكلمات حتى يفهمه مَنْ أمامه.

ولقد سأل الحسين رضي الله عنه والده علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: كيف كان دخول رسول الله ﷺ إلى أي مكان ؟

فقال: كان دخوله لنفسه مأذوناً له .. ومعنى ذلك أن الرسول الكريم كان قبل أن يدخل إلى أي مكان يستأذن مَنْ بداخل المكان إذا كانوا مستعدين لملاقاته، مع أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان أحب للمؤمنين من أنفسهم.

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام إذا أوى إلى منزله جزَّأ وقته إلى ثلاثة أجزاء: جزءاً لله، وجزءاً لأهله، وجزءاً لنفسه.. أي أن له مكاناً يتعبد فيه، ومكاناً للقاء أهله، ومكاناً يختلي فيه بنفسه، ويلتقي فيه بأصحابه .. وكان أقرب الناس إليه خيارهم. وعلى قدر أفضليتهم في دين الله.. وعندما يأتي إليه أصحاب الحوائج فقلبه لهم، وعقله معهم، وينشغل بهم، ويشغلهم فيما يصلح أمرهم.

وكان رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ كان وُصْلَةً لأخيه المسلم إلى ذي سلطان في مبلغ بر، أو تيسير عسير أعانه الله على إجازة الصراط يوم القيامة عند دَحْض[1] الأقدام».[2]

ويسأل الحسين رضي الله عنه أباه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه عن خروج رسول الله ﷺ، وما كان يصنع فيه، فيجيب: كان رسول الله ﷺ قليل الكلام لا يتكلم إلا فيما يعنيه.. ويُؤلِّف قلوب مَنْ يلقاهم. ولا يفرِّق القلوب.. يكرم كريم كل قوم ويُولِّيه عليهم.. ويتفقد أصحابه ويسأل عمَّنْ غاب منهم.. ويسأل الناس عما في الناس.. ويُحسِّن الحسن ويُضرِّب القبيح ويضعفه.

---

(١) الدحض: الزلل. والإدحاض: الإزلال [لسان العرب: مادة دحض].
(٢) أخرجه الطبراني في الصغير (٢٦٦/١)، وابن حبان (٤٦٣ - موارد الظمآن) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وكان معتدل الأمر، لا يتطلع عن حديث أو قول أو أمر حتى لا يتقل الناس. لا يبتعد عن الحق ولا يجاوزه. لا يفضل أحداً عن أحد في مجلسه.. ويحب أصحابهم قدرة على النصح، وأعظمهم مقدرة على التعاطف والتآزر. لا يتكلم إلا فيما يفيد يجمع كلامه قلوب الناس ويقربهم. يحب أن تتكامل القلوب بالمحبة ولا تتفرق بالكراهية.

ويقول على بن أبي طالب: كان رسول الله ﷺ لا يُولّى على الناس إلا كريمهم، أي: أكرم الناس بالناس. لأن الكريم يمنح من ذات نفسه للآخرين. ويجود عليهم بقدر ما يهبه من أجلهم. لا يطمعهم على شىء. وكان رسول الله ﷺ يُكْرِم أصحابه الحظّة. ويزن الإنسان بميزان الاحترام. وكان عليه الصلاة والسّلام يحذر من أن يقُصّ له أحد قولاً عن أحد.. لا يحب نقل النميمة والقيل والقال.

وكان ﷺ يستقبل الناس بحب وعطف وبشْر.. والأمر الحسن يزيده حُسْناً.. والأمر غير الحسن ينهي عنه.. يلتزم اليقظة والانتباه دون توتر أو قلق. لا يغفل عن شيء مخافة أن تكون الغفلة منهجاً.. يزن كل أمر بميزان العدل.. ولا يختلف مع أحد محبة في الخلاف. لا يسمح بالنفاق في مجلسه. لا يجلس في مكان ثابت.. إنما يجلس في المكان الذي ينتهي به وسط الناس. وكان ﷺ يوزع عنايته على كل من يحضر مجلسه. حتى لا يظن أحد أنه أفضل من الآخرين. لا يُنهي اللقاء بأحد. إنما يترك إنهاء اللقاء لمن طلب المقابلة.. مجلسه حِلْم وصبر وحياء وأمانة. لا يرفع صوته إلا

بقدر ما يسمعه الآخرون .. دائم البشر لين الجانب سهل الخلق، يتغاضى عن أي سلوك لا يعجبه . كأنه لم يره حتى لا يجرح أحداً في مجلسه.

صفات ليست في الرسول ﷺ

ولقد ترك رسول الله ﷺ من نفسه ثلاثة أمور . الرياء والإكثار.. وما لا يعنيه.. وترك الناس في ثلاثة أمور.. لا يذم أحداً. ولا يُعيِّر أحداً ولا يطلب عورة أو عيوب أحد. إذا تكلم سكت جلساؤه. وإذا سكت تكلم أصحابه كُلٌّ حسب دوره لا حسب مكانته.. لا يقاطع أحدهم الآخر ، ولا يقاطع رسول الله ﷺ أحدهم.

وكان رسول الله ﷺ يضحك لما يضحك له أصحابه.. ويعجب مما يعجبون به. وإذا دخل غريب يجهل مكانة رسول الله كان الرسول يصبر على غلظة الغريب ويتلطف معه.. وإذا غضب بعض الصحابة لسلوك هؤلاء الغرباء كان رسول الله ﷺ يطلب منهم أن يلتزموا الحلم.

فقد جاء أعرابي إلى النبي ﷺ يطلب منه فأعطاه . ثم قال : أحسنت إليك ؟ فقال الأعرابي : لا ، ولا أجملتَ . فغضب المسلمون وقاموا إليه. فأشار إليهم النبي أن كُفُّوا ، ثم قام ودخل منزله، وأرسل إلى الأعرابي شيئاً ، ثم قال: أحسنتُ إليك؟ فقال الأعرابي : نعم فجزاك الله عن أهلي وعشيرتي خيراً.

فقال له النبي ﷺ : « إنك قُلْتَ ما قُلْتَ وفي نفس أصحابي من

ذلك شيء . فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك».

قال : نعم.

فلما كان الغد أو العشيّ جاء . فقال رسول الله ﷺ : إن هذا الأعرابي قال ما قال ، فزدناه ، فزعم أنه رضي . أكذلك ؟ قال الأعرابي : نعم . فجزاك اللهُ من أهل وعشيرة خيرًا

فقال النبي : « مَثلي ومَثل هذا مَثل رجل له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس . فلم يزيدوها إلا نفورًا . فناداهم صاحبها : خلُّوا بيني وبين ناقتي ، فإني أرفق بها منكم ، فتوجه لها بين يديها . فأخذ لها من قُمام[1] الأرض فردّها حتى جاءت واستناخت ، وشدّ عليها رحلها ، واستوى عليها . وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه ، دخل النار » .

وكان رسول الله ﷺ صبورًا حليمًا . صبرًا على الغضب . وحلمًا على الجهل .. وكان حازمًا في ردّ القتال . كان صبيح الوجه حسن الصوت.

بشرية الرسول ﷺ

على أن الحق سبحانه وتعالى اختار رسول الله ﷺ بشرًا كريمًا . وكان هذا الاختيار هو محل هجوم المنافقين والكفار إلى يوم القيامة . فكل رسول جاء قبل رسول الله ﷺ كان من البشر وكل رسول هاجمه قومه بأنه بشر.

---

(١) القُمام : القُماش . قال اللحياني : القُماش ما كُسح من الأقذار بعضه على بعض.
[لسان العرب ـ مادة : قمم]

اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ .. (٢٧) ﴾ [هود]

لقد نزلت هذه الآية الكريمة في قوم نوح عليه السلام - أول نبي أرسله الله بعد آدم - ويقول الحق سبحانه وتعالى

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ .. (٩) ﴾ [إبراهيم]

ماذا قال أقوام نوح وعاد وثمود ومن بعدهم لرسلهم؟

الحق سبحانه وتعالى يقول

﴿ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠) ﴾ [إبراهيم]

وعندما أرسل الله سبحانه وتعالى شُعَيبًا إلى قومه حتى يُوفوا الكيل والميزان قالوا له:

﴿ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) ﴾ [الشعراء]

وقوم ثمود الذين قالوا لنبيهم صالح:

﴿ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) ﴾ [القمر]

وعن موسى عليه السلام عندما كُذِّب به قوم فرعون.. ماذا قالوا؟

﴿ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٧) ﴾ [المؤمنون]

ثم جاء الحق سبحانه وتعالى بالقضية كلها مُجْمَلة في قوله جلَّ جلاله

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦)﴾ [التغابن]

وعن رسول الله ﷺ كانت بشريته أساساً أخذه الكفار للتشكيك في رسالته.. اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى

﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٣)﴾ [الأنبياء]

طاعة الله ورسوله

إذن.. فقضية بشرية الرسول أثارها المنافقون والكفار منذ بدء الرسالات السماوية.. وهي لا تزال مُثارة حتى الآن.. ونجد من يتخذ من بشرية رسول الله ﷺ حجة لكي لا يتبع السنة.. أو لا يتبع ما أمر به الرسول عليه الصلاة والسلام. وبعضهم يقول إن السنة غير واجبة الاتباع مَنْ اتبعها أُثيب، ومَنْ تركها لا يُعاقب.. إلى غير ذلك مما نجده حتى يومنا هذا.

ونسي هؤلاء الناس ما جاء في القرآن الكريم من قوله تعالى

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. (٥٩)﴾ [النساء]

وقوله جلّ جلاله.

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. (٧)﴾ [الحشر]

وقوله عزّ وجل.

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ .. (٣١)﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى :

﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ .. (٨٠)﴾ [النساء]

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى أمرنا بالطاعة له والطاعة لرسوله في قوله :

﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. (٥٩)﴾ [النساء]

ومرة أمرنا بأن نطيع الله ورسوله

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢)﴾ [آل عمران]

وفي قوله تعالى

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ .. (٣٢)﴾ [آل عمران]

ومرة أمرنا بطاعة رسوله في قوله جلّ جلاله :

﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ .. (٨٠)﴾ [النساء]

ومرة أعطى رسوله ﷺ حقّ التشريع في قوله جلّ جلاله :

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا .. (٧)﴾ [الحشر]

وهكذا نجد أن اتباع السنة أمر واجب بنصّ القرآن الكريم.. بل إن هناك أشياء كثيرة نزلت في القرآن الكريم مُجْملة وبيّنها رسول الله ﷺ.

فالصلاة المفروضة ذُكِرتْ في القرآن ، في قوله تعالى

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ .. (٣)﴾ [البقرة]

ولكن عدد الصلوات لم يُذكر في القرآن الكريم ، ولا أوقاتها

ولا عدد ركعات كل صلاة، ولا كيفية الصلاة.. كل هذا جاء في السنة. فكيف إذا تركنا السنة، ولم نأخذ بها كيف نستطيع أن نصلي.. وكيف نستطيع أن نحجَّ ومناسك الحج أخذناها عن رسول الله ﷺ

إن الذين يحاولون أن ينادون بعدم الالتزام بالسنة أو تركها، إنما ينادون بترك الصلاة وترك الحج وترك أشياء كثيرة في الدين، ولا يمكن أن نفهم الدين، حسب مراد الله إلا من خلال بيان السنة، ولا يمكن عبادة الله حق عبادته إلا باتباع القرآن منهجاً والسنة إيضاحاً وبياناً

ورسول الله ﷺ يقول: «أوتيتُ القرآن ومثله معه»[1]

ويقول عليه الصلاة والسلام «تركتُ فيكم ما إن اتبعتموه لن تضلوا أبداً كتاب الله وسنتي»[2] إذن: فالسنة النبوية الشريفة واجبة الاتباع.. ويكفي قول الحق سبحانه وتعالى

﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ.. (٨٠)﴾ [النساء]

الملائكة لا تصلح للرسالة

نعود بعد ذلك إلى قضية بشرية الرسول.. الله سبحانه وتعالى حين يختار مَنْ يُبلِّغ رسالته. فإنه يختار من نفس جنس القوم المرسل إليهم. فإذا كان الرسول للبشر فلابد أن يكون بشراً لأن الملائكة لا تصلح للرسالة البشرية وإنما ترسل مأمورة بالأمر في

(1) أخرجه أبو داود في السنة [illegible] والبيهقي في السنن الكبرى (6/326)

(2) أخرجه مالك في موطئه [illegible] وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة [illegible]

قضايا خاصة من لدن الحق وهنا سؤال :

لماذا يكون الرسول بشراً ؟

لأن الرسول مُبلِّغ لمنهج الله .. أي . انه يُبلِّغ الناس رسالة السماء .. فلابد أن يكون منهم ويتحدث لغتهم ويعرف طباعهم.. حتي يستطيع أن يبلغهم الرسالة.. ولابد أن يكونوا قد عرفوه قبل الرسالة.. وعرفوا أمانته ، وصدق قوله ، وحسن خلقه . فلا يشتهر بينهم بالكذب مثلاً ولا بسوء الخلق ولا بغير ذلك . فلو كانت حياته كذلك لم يصدقه أحد . ولكن الواقع أجلب غير ذلك

إذن فالحق سبحانه وتعالى في اختياره وحتى يؤدي الرسول مهمته كما أرادها الله.. فإن الله يبعثه في قومه.. يتحدث بلسان القوم.. ويعرفونه معرفة جيدة وأكيدة قبل الرسالة.. ويحترمونه لأمانته وخلقه وصدقه.. وذلك حتي يتأكدوا أن هذا الرسول الذي لا يكذب علي الناس لا يمكن أن يكذب علي الله..

ثم إن الرسول بالإضافة إلى أنه يُبلِّغ قومه المنهج فإنه يُعلِّمهم كيف يُطبقونه . فإن منهج السماء نظرية لابد لها من تطبيق عملي حتى يرى الناس رسولهم . وهو يصلي . وهو يحج . وهو يُطبق المنهج أمام قومه حتى يتبعوه وليكون ذلك بطريقة عملية. فإن بشرية الرسول حتمية ودعوته ربانية بالوحي المأمول أو النطق الموصول والسلوك السوي .

لماذا ؟ لأنه لو ارسل الله سبحانه وتعالي مَلَكاً رسولاً .. فإن الناس لن يعرفوه لأنه ملكٌ لا يعيش على الأرض .. فلو افترضنا أن الحق سبحانه وتعالى عرَّفه لهم فإنهم سيقولون إن هذا الرسول لا يصلح قدوة لنا . إن هذا ملك مخلوق من نور ، فهو يتحرك بخفة وسهولة . ونحن بشر مخلوقون من طين ثقيل

الحركة ، وهنا مَلَك خلق لا يعصي الله ويفعل ما يُؤمر به .. ونحن بشر نصيب ونخطىء .

إذن .. فالملك لا يصلح رسولاً للبشر .. لأن قدراته وطبيعة خلقه تختلف عن قدرات وطبيعة خلق البشر . فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يأتي الرسول بشراً من جنس القوم الذين أرسل إليهم . حتى لا يأتي أحدهم يوم القيامة ويجادل . قائلاً : يارب حملتنا ما لا نطيق ، وفرضت علينا ما لا نقدر عليه .. لأن هذا مردود عليه بأن الرسول بشر مثلكم.

ومع ذلك استطاع أن يُطَبِّق المنهج دون أن يتحمل فوق ما يطيق البشر ، وشهادة على ذلك . فإن الله أرسل إليكم من تعرفونه وكنتم تصحبون به وبخلقه قبل أن يُكلَّف بالرسالة .. فلا عذر لكم يوم القيامة

والله سبحانه وتعالى جاء بهذه القضية ، وردّ عليها في القرآن الكريم .. فقال جل جلاله

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا (٩٥) ﴾ [الإسراء]

أي : أن الملائكة لا يعيشون الحياة الأرضية التي يعيشها البشر، ولذلك لا يمكن أن يكونوا رسلاً .. فإذا أضفنا إلى ذلك أننا ببشريتنا لا يمكن أن نرى الملائكة فإنهم في هذه الحالة سيكونون غيباً عنا .. فكيف نأخذ القدوة ممن هم غيب عنا ؟

ثم جاء قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون (٩)﴾

[الأنعام]

أي : أن الحق سبحانه وتعالى ينبهنا أنه لو أرسل ملكاً فلكي نراه لابد أن يجعله رجلاً يلبس نفس ثيابنا . وفي هذه الحالة فسيكون أمامنا بشراً.

إذن . فبشرية الرسول حتمية . وضرورية إلاهية حتى يمكن أن يكون معروفاً من قومه.. وحتى يمكن أن يطبق المنهج أمامنا فنفعل مثل ما يفعل. ونأخذ عنه التطبيق الصحيح لمنهج السماء . ويكون قدوة قبل الرسالة.. ولن يكون معروفاً من القوم الذين أرسل إليهم. كل هذه المواصفات من تمام إبلاغ الرسالة للبشر.. ولو اختلت لضاعت الرسالة في التطبيق

صدق الرسول وأمانته

الله سبحانه وتعالى حينما اختار رسوله ﷺ لختاره بشراً.. وبعثه إلي قومه وعاش بينهم أربعين عاماً قبل أن يكلف بالرسالة.. لم يعرفوا عنه كذباً قط ، بل كان هو الصادق الأمين.. كانوا إذا خافوا على شيء ائتمنوه عليه.. وكانوا يُصدِّقونه ويُحكِّمونه فيما يختلفون فيه. وحتى بعد أن نزلت الرسالة كان الكفار الذين لا يؤمنون برسول الله ﷺ لا يجدون مَنْ يأتمنونه على كل غالٍ ونفيس يخافون عليه إلا رسول الله ﷺ

لذلك عندما هاجر عليه الصلاة والسلام إلى المدينة.. طلب من علي كرم الله وجهه أن يرد للناس ودائعهم التي ائتمنوه عليها.. وهكذا كانت بشرية الرسول التي جادل فيها المنافقون والكفار من

مقتضيات الرسالة وعدالة الحساب يوم القيامة . مع أن الرسول بشر . والرسل إليهم بشر.. لا يملك أحد الحجة في أن يدعي أن الرسول مخلوق فوق قدرات البشر ، جاءهم بمنهج لا يستطيعون أن يطبقوه

وعندما أراد سليمان عليه السلام أن يُحضروا له عرش بلقيس . وجمع الإنس والجن وغيرهم.. وطلب منهم إحضار عرش بلقيس قبل أن تصل إليه يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. (٤٠) ﴾ [النمل]

إذن عندما طلب سليمان أن يأتوه بعرش بلقيس لم يجرؤ بشر من العامة على أن يقول : أنا آتيك به . وإنما كان أول من تكلم هو واحد من أقوياء الجان.. لماذا ؟. لأن البشر في العادة لهم قوانينهم . وهم في مسألة إحضار عرش بلقيس بالسرعة التي يريدها سليمان عليه السلام لا يقدرون عليها عادة . لذلك سكتوا والتزموا بطبيعتهم بقوانين بشريتهم إلا من كان عنده علم من الكتاب لأن له اصطفاء خاصاً وتجهيزاً مخصوصاً جعله يتحدى الجان فيما قال وقد صدق فيما عرض ووفى بعين الطلب قبل ارتداد الطرف وهو من الإنس المخصوص . الذي سما بالطبيعة فارتقى واتصل بالعبادة والسلوك الرباني فأعطى له من الخصوصيات ما يجعله يتحكم فيما يريد بإرادة المراد .

كذلك الرسالات السماوية لا تُحمِّل البشر إلا ما يطيقونه ولكي تكون الرسالة في مقدور طاقة البشر .

على أن لنا حديثاً عن الوحي. ولقاء الملك بالبشر .

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ (٦)﴾

[فصلت]

الفصل الثالث

الرسول والوحي

إذا كان حديثنا عن رسول الله ﷺ والوحي.. فلابد أن نعرف أولاً ما هو الوحي.. الوحي هو إعلام بخفاء.. أي تُعلم شخصاً بشيء ولا يشعر إلا أنت وهو بأنك أعلمته.. فإذا كنتَ متفقاً مثلاً مع أهل بيتك على إشارات معينة لا يفهمها إلا أنت وهُمْ . لإحضار الطعام والشراب.. وقمت بالإشارة لهم بحيث لم يفهمك أحد فإن هذا يؤدي معنى الوحي.. لأنه إعلام بخفاء بين الموحي والموحَى إليه . والله سبحانه وتعالى أوحى إلى رسله جميعاً أي : أن الرسالات السماوية كلها نزلت بطريق الوحي.

وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) ﴾ [النساء]

ويقول جل وعلا

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) ﴾ [الشعراء]

معنى الوحي

ولكن هل اقتصر الوحي من الله على أنبيائه ورسله؟ نقول لا.. فقد أوحى الله للملائكة وللإنسان.. وأوحى للنحل ، وأوحى للجماد كما أخبرنا القرآن الكريم.. فالوحي للملائكة جاء في غزوة

بدر عندما أراد الله أن يثبت المؤمنين وينصرهم في أول معركة على أئمة الكفر.. فقال تعالى :

﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ﴾ [الأنفال]

وأوحى الله إلى أم موسى عندما أمرها أن تلقيه في البحر. قال جل جلاله :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ.. (٧) ﴾ [القصص]

وساعة يأتي الوحي من الله سبحانه وتعالى .. فإنه يسيطر على الذهن تماماً.. ولا يكون هناك موضع لفكر بشري .. أو استخدام العقل . والله سبحانه وتعالى يُوحي إلى أم موسى ، وهي خائفة على ابنها من أن يقتله فرعون وجنوده وهو طفل صغير.. حيث أمر فرعون بقتل أي طفل ذكر يولد من بني إسرائيل. بعد أن أخبره العرافون أن رجلاً من بني إسرائيل سيكون سبباً في زوال مُلكه.

ولو أنه كانت اجتهادات للعقل البشري ما فعلت أم موسى ذلك.. فكيف تلقى بطفل رضيع في صندوق في البحر لتنجيه من الموت ؟! وماذا كان يمكن أن يحدث لو تلاعب الموج بالصندوق الذي فيه الصغير فقلبه أو لو هبَّتْ عاصفة أو ريح شديدة أو سقط المطر وامتلأ الصندوق بالماء فغاص ثم أخذه البحر وألقاه بعيداً في مكان لا يراه أحد . فمات من الجوع والعطش.

كان العقل والمنطق يقتضيان من أم موسى أن تُخفي ابنها عن أعين الناس.. ثم تذهب به إلى مكان مهجور ليختبئا فيه أو تلجأ

إلى مغارة في جبل أو أية حيلة أخرى تخفي بها موسى عن أعين رجال فرعون.. ولكن أن تلقيه في البحر فكأنها تلقيه من موت مظنون لتلقيه إلى موت مُحقق.

ولكن عندما جاء الأمر من الله سبحانه وتعالى. وقال الحق:

﴿إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى (٣٨) أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل .. (٣٩)﴾ [طه]

لم تفكر أم موسى في هذا كله ولكنها نفذت أمر الوحي.. ولكن بعد أن نفذت الأمر وذهب عنها الوحي خافت.. ولذلك أسرعت إلى أخته تطلب منها أن تتبع الصندوق.

وعندما حمل الماء الصندوق إلى قصر فرعون انزعجت أم موسى انزعاجاً كبيراً. لأنها بدلاً من أن تُخفي ابنها عن أعين رجال فرعون.. قذفته إلى فرعون نفسه. ولكن الله سبحانه وتعالى كانت له حكمة في أن يرينا أنه جل جلاله بقدرته يجعل العدو وهو فرعون.. يربي ويحتضن من سيزيل ملكه

إذن: فالحق سبحانه وتعالى يوحي إلى الملائكة .. ويوحي إلى رسله.. ويوحي لمن يشاء من البشر كما أوحى إلى أم موسى ويوحي إلى الصالحين من عباده، كما أوحى إلى الحواريين. والحواريون ليسوا رسلاً .. ولكنهم المخلصون من أتباع عيسى وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون (١١١)﴾ [المائدة]

وأوحى الله سبحانه وتعالى إلى النحل في قوله جل جلاله:

﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون (٦٨)﴾ [النحل]

ويوحي الله سبحانه وتعالى إلى الجماد في قوله

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) ﴾

[الزلزلة]

إذن : فالوحي من الله ليس للأنبياء فقط.. ولكن لمن شاء الله سبحانه وتعالى أن يوحي إليه

والوحي من رحمة الله بعباده . ذلك أن الله لا يمكن أن يعطي منهجه مباشرة إلى رسله . الطبيعة البشرية لا تحتمل إلا أن يكون ذلك وحياً . وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى .

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ . (٥١) ﴾

[الشورى]

وعندما أراد موسى أن يرى ربه . وقال :

﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ .. (١٤٣) ﴾ [الأعراف]

قال الحق سبحانه

﴿ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا .. (١٤٣) ﴾ [الأعراف]

وهكذا نرى أن الطبيعة البشرية وطبيعة خَلْق الإنسان من طين لا تجعله يحتمل نور الله.. وطلب موسى ليرى ربه كان مطلباً محتملاً حيث أنه يريد من الله أن يهيئه بهيئة خاصة حتى يرى ربه وبغير ذلك لا يكون محتملاً هنا بالنسبة للحياة الدنيا.. أما في الآخرة فيغير الله طبيعة خلقه ليعطيهم الحياة الأبدية.

اختيار الرسول أمياً

الله سبحانه وتعالى قبل أن ينزل الوحي على رسوله ﷺ . أبعد عنه كل شبهة بشرية . بل ما سيتلقاه محمد عليه الصلاة والسلام من وحي السماء ممكن أن يكون من العلم البشري سواء كان ذلك من حضارة الأمم السابقة . أو مما يمكن أن يقرأه من الكتب وغير ذلك.

ولذلك اختار الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ الأمية.. ومعنى أمي.. أي كما ولدته أمه لم يتلق علماً من بشر . وكانت هذه الأمية شرفاً لرسول الله ﷺ .. لماذا ؟.. لأن الله سبحانه وتعالى الذي اختاره خاتم المرسلين أراد أن يعلمه بنفسه. وأراد ألا يتلقى رسوله عليه الصلاة والسلام إلا علم السماء.

ولذلك اختاره أمياً . وذلك من حُسن إعداد الحق تبارك وتعالى لرسالة نبيه ﷺ فلو أن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان يقرأ أو يكتب لقالوا أخذ العلم مما قرأ . أو أخذ العلم من كُتب الأولين أو من حضارات الأمم المعاصرة . ولذلك اختار له الله سبحانه وتعالى أن ينشأ أمياً على الفطرة النقية ليكون التلقي موصولاً بربه ويكون ما لديه من العلوم والمعارف هي من عند الله.. حتى يعرف الجميع أن كل علم رسول الله عليه الصلاة والسلام جاء من السماء.

ورغم هذا الاختيار وهذه الحكمة. قد غلبت عقول الكفار عنها وادعوا أن رسول الله ﷺ يُعلمه بشر وادّعوا أنه جاء بهذا العلم من أساطير الأولين.

ويرد الله تبارك وتعالى عليهم مذكراً لهم بمعجزة الأمية لرسوله . فيقول سبحانه وتعالى :

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨)﴾ [العنكبوت]

إذن : فالحق سبحانه وتعالى يلفت البشرية كلها إلى أنه اختار أن يكون رسوله ﷺ أمياً . حتى يرد على ما يدعيه أنصار الباطل وأعداء الإيمان . من أن رسول الله عليه الصلاة والسلام أتى بالقرآن من عنده . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول لنبيه : لو أنك كنت تقرأ أو تكتب قبل أن تأتيك النبوة . فربما كان ذلك حجة لأنصار الباطل أن يقولوا إن هذا القرآن من عندك . ولكنك لا تقرأ ولا تكتب . ولم تقرأ كلمة واحدة في حياتك قبل الرسالة ولا كتبت كلمة واحدة . فأنت بالمعاني موصله وبصوت السماء منطقه . بدليل قوله تعالى : ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ .. (١١٤)﴾ [طه]

إذن . فحجتهم باطلة لا سند لها من الحقيقة أو الحق . وإنما هي مكابرة لعدم الإيمان وحجة للكفر . وحُجَّتُهم مردودة عليهم. وفي تلك يقول الله جلّ جلاله لنبيه ليرد على دعاوى أهل الباطل :

﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾ [يونس]

وهكذا يطلب الحق سبحانه وتعالى من رسوله أن يرد عليهم أنه عاش معهم أربعين سنة أي عمراً كبيراً.. ولم يقُلْ لهم أنه أوحي إليه ولم يأتِ بشيء من عنده.. ولو أنهم فكروا بعقولهم في هذا العمر الذي قضاه الرسول ﷺ بينهم قبل أن يوحى إليه . وأنه لم يدع شيئاً لكان ذلك كافياً لكي يصدقوه . وإذا قال قائل : إنه نوع من

للعبقرية التي ربما تظهر على عبد من عباد الله رغم أنه لم يتعلم ولم يقرأ.. نقول . أي عبقرية هذه التي تظهر فجأة في سن الأربعين.

إن العبقرية والنبوغ يظهران عادة في سنٍّ مبكرة ، ولا ينتظران حتى هذه السن . فإذا قبل ربما ظهرت العبقرية والنبوغ في سن مبكرة . وكتمها رسول الله ﷺ حتى سن الأربعين .. نقول : ومن أدرى محمداً أنه سيعيش إلى سن الأربعين . وهو يرى أباه يموت قبل أن يولد . وأمه تموت وهو لا يزال طفلاً . حينما يتيتم الأب والأم فكل توقعات حياته أن الموت يخطف الناس في سنٍّ مبكرة كما خطف أباه وأمه.. فهل يكتم هو عبقريته حتى سنِّ الأربعين . لو أن أباه وأمه أعز الناس على نفسه وأكثرهم تأثيراً في حياته . عاشا حتى بلغا سن الستين أو الأربعين . لقلنا : إنه توقع أن يعيش كما عاشا . ولكن هذا الموت المبكر لا يضع في نفسه الثقة أبداً في أنه سيعيش حتى يبلغ هذه السن

وهكذا كانت الأمية شرفاً لرسول الله ﷺ وضرورة للرد على دعاوى الباطل .. ويقيناً للمؤمنين لأن كل ما أتى به رسول الله ﷺ .. إنما هو من وحي السماء ، وللأسف فإن هذه الدعاوى مازالت تدور في أفكار بعض أدعياء الفكر بغية الظهور البغيض والتعالي الممقوت الذي لم يلبث إلا أن يتلاشى حيث إنه باطل ، والباطل لا يغني من الحق شيئاً .

ولقد شاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن ينشأ محمد ﷺ يتيماً حتى لا يقال أنه استخدم نفوذ أبيه . أو أنه استند إلى سلطان غير سلطان الله.. وحتى وهو طفل حين تعرضه أمه على المراضع.. حتى ينشأ في البادية قوياً.. وتأتي النساء من البادية ليخترن ذلك الطفل الذي سيقمن بإرضاعه.. ومن يبحثن عن طفل له أب حتى يجزل

لبنيْ العطاء. نجد أنه ما من امرأة إلا وعُرض عليها رسول الله ﷺ . فإذا قيل لها بأنه يتيم الأب ترفض أن تأخذه لأن كـلاً منهن كانت تريد المال من أبي الطفل. فإذا عرفت أنه يتيم أعرضت عنه . إلا حليمة السعدية التي كانت بين المراضع ولم تجد طفلاً لترضعه.

وعندما وجدت حليمة نفسها أنها الوحيدة التي لم تفُزْ بطفل ترضعه قالت : والله إني لأكره أن أرجع بين صواحبي ولم آخذ رضيعاً.. والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذه عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة.. وتقول حليمة : وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره.

وتأخذ حليمة الطفل اليتيمَ فيمتلىء بيتها بالبركة.. وتجد ماشيتها المرعى فتسمن وتكبر . وماشية القوم كلهم لا تجد مرعى في أرض بني سعد الجدباء . وكانت أغنام حليمة تحلب اللبن الوفير ، وغنم قومها لا تحلب قطرة لبن . حتى كان القوم يقولون لرعاتهم : اسرحوا حيث تسرح غنم حليمة السعدية

وتمضي المعجزات. وفي يوم من الأيام بينما كان رسول الله ﷺ في البادية يلعب مع عبدالله بن الحارث ، وهو ابن حليمة مرضعة رسول الله عليه الصلاة والسلام وأخيه في الرضاعة جاء رجلان عليهما ثياب بيض . ثم أخذاه ﷺ وشقا بطنه وصدره ، واستخرجا من قلبه شيئاً يشبه بالعلقة السوداء.. ثم غسلا صدره بشيء يشبه الثلج . ثم قال أحدهما لصاحبه : زنه بعشرة من أمته فرجحت كفته . فقال : زنه بمائة من أمته فرجحت كفته. ثم قال : زنه بألف من أمته فرجحت كفته. فقال : والله لو وزنته بأمته كلها لرجحت كفته

وقد قيل : إن الملكين نقيا قلب رسول الله ﷺ وهو طفل من غمزة الشيطان التي توجد في كل إنسان. حتى لا يكون في قلبه شيء إلا للتوحيد .. وهنا أسرع عبد الله إلى أمه وأبيه وهو منزعج .. وقال لهما : ذلك أخي القرشي أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فشقا بطنه وصدره . فخرجت حليمة وزوجها منزعجين . فوجدا رسول الله ﷺ واقفاً كأنه لم يُصَبْ بسوء . وحينئذ خافت حليمة أن يحدث له شيء ، فقررت أن تعيده إلى أمه.

خيار من خيار

وهكذا نشأ رسول الله ﷺ مُعداً إعداداً كاملاً من ربه لتلقي الرسالة وتلقي الوحي.. جعله الله بشراً لأن بشرية الرسول حتمية حتى يتلقى عنه قومه المنهج . وبعثه في قومه حتى يكون معروفاً منهم بالخلق الكريم والأمانة.. وجعله يتيماً حتى لا يقال : إنه قد استفاد من نفوذ أبيه أو مكانته. وجعله أمياً حتى لا يقال : إنه أخذ شيئاً من حضارة البشر.. وجعله خياراً من خيار من خيار.. ورسول الله ﷺ يقول

«إن الله خلق الخلق، فاختار من الخلق بني آدم ، واختار من بني آدم العرب ، واختار من العرب مُضَر ، واختار من مضر قريشاً، واختار من قريش بني هاشم ، واختارني من بني هاشم ، فأنا خيار من خيار من خيار ، فمَنْ أحبَّ العرب فبحبي أحبهم ، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم»[1]

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٦/ ١٤١) والحاكم في مستدركه (٤/ ٧٣) من حديث ابن عمر

ويقول ﷺ

« إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من بني إسماعيل بني كنانة ، واصطفى من بني كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم »[1]

ولابد أن نقف هنا عند قول المستشرقين : إن هناك تعارضاً بين الحديث الشريف ، وبين قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٧٤) ﴾ [الأنعام]

ونحن نعلم أن رسول الله ﷺ من سلالة سيدنا إسماعيل وإسماعيل ابن خليل الرحمن إبراهيم . ويتوهم البعض أن آزر والد سيدنا إبراهيم عليه السلام نقول : إن علينا أن نعرف أنه من عادات العرب أن ينادي الابن عمه بقوله أبي فلان.. أما إذا نادى أباه.. فإنه يقول أبي فقط ولا يناديه باسمه وخليل الرحمن إبراهيم عندما نادى آزر لم يقلْ أبي فقط وإنما قال أبي آزر.

وقد ذكر القرآن الكريم كلمة آزر ليبين لنا أنه ليس والد إبراهيم ، وإنما هو عمه.. وفي ذلك يُوضِّح لنا الحق سبحانه وتعالى في قوله .

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) ﴾ [البقرة]

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (١/١٦٥ ، ١٦٦) من حديث واثلة بن الأسقع ، ومسلم في صحيحه (صحيح ٢٢٧٦)

هنا نرى أن إبراهيم هو الجد، وإسحق هو أبو يعقوب، وإسماعيل عم يعقوب، ولكن الآية الكريمة تجمع بين إبراهيم وإسماعيل وإسحق وتجعلهم جميعاً مأبهم آباء. لذلك فإن العم يناديه أبناء أخيه بلقب أب. ولكنهم يُفرّقون بين الأب الحقيقي والعم بأن يضيفوا الاسم عندما ينادون العم فيقولوا: يا أبانا فلان. إذن فآزر هو عمّ إبراهيم.. وليس هناك تعارض بين الحديث الشريف والقرآن الكريم.

ولقد كانت الإرهاصات التي جاءت مع رسول الله ﷺ قبل الوحي رمزاً في الاصطفاء الرباني. فقد كان طفلاً يتسم سلوكه بالاتزان، ولا يعرف اللهو. وكان وهو صبي يقعد الكبار بصفاء مكسبه. كان جده عبدالمطلب يقدمه على أبنائه ويقول: إن لابني هذا لشأناً. وكان عمه أبو طالب يحبه حباً يفوق حبه لأولاده.

ويقول: إن محمداً لما شب وكان أفضل القوم مروءة وأكثرهم حلماً وأصدقهم حديثاً. كان يرعى الغنم. وكأنها تدريب على الصبر والحلم والشفقة وفهم اختلاف الطباع. ولم يكن عمل محمد قبل الرسالة إلا صالحاً وإلا خيراً. يجري الرجال إلى خديجة رضي الله عنها يرجون منها الزواج.. ولكنها هي التي ترسل إلى محمد ليكون زوجا لها

وهكذا أراد الله له زوجة تعطيه حنان الأم وحكمة الفهم وحُسن الاستنباط.. هي أكثر قومها مالاً، وأعظمهم شرفاً. يتاجر لها في مالها، فيزيده الله لها بركة. وكان كل هذا مقدمة لتخفيف عبء الوحي العظيم عن رسول الله ﷺ فهو النبي القادم. وكان لا بد

من إعداد مُسبق . بأن يلتقى رسول الله ﷺ مع الوحى . وكان هذا الإعداد هو القدرة على التأمل لكل ما يجرى حوله من أمور.

ولذلك ـ قبل الرسالة ـ كان رسول الله ﷺ عندما يأتى شهر رمضان كان يعتكف فى غار حراء يتأمل الدنيا ويناجى ربه وكانت الخلوة بعيدة عن مشاكل الحياة والتأمل عميقا يحدث فى الكون. وكان عليه الصلاة والسلام وهو يعتكف فى غار حراء يستطيع أن يرى الكعبة . فكان نظره لا يغيب عن بيت الله الحرام طوال فترة اعتكافه وكان الصفاء الروحى يحيط برسول الله ﷺ طوال بقائه فى الغار حيث لا صخب ولا ضجيج . كل هذا الصفاء هو الذى يعطى لنفسه القوة لما هو قادم . وهو اللقاء مع الوحى.

ولقد كانت معجزة النبى الخاتم لا بد أن تكون معجزة كبرى.. والقرآن معجزة كبرى.. وحتى يتنزل القرآن على رسول الله ﷺ كان لابد من رسول مُقرّب إلى الله ينزل على محمد بالقرآن.. وكان جبريل الملك المكلف من الحق سبحانه وتعالى أن ينزل بالوحى على رسول الله عليه الصلاة والسلام.

معجزات العموم والخصوص

ولقد شاءت قدرة الحق سبحانه وتعالى الموحدة لهذا الكون أن تصطفى محمداً رسولاً وأن تصطفى جبريل ملكاً كريماً للرسالة القرآنية.. ذلك أن القدرة البشرية لا تستطيع أن تتلقى مباشرة من الله وكل أنبياء الله من البشر . وكلهم لم يكن لهم القدرة على التلقى المباشر من الله . لأنه ليس فى مقام قدرة المخلوق أن يأخذ من الخالق الأكرم.

ولقد كانت إرادة الله أن تكون معجزات الرسل خروجاً على نواميس وأسباب الحياة ، وجاءت معجزة محمد ﷺ معجزة المعجزات ؛ لأن كل معجزة لرسول كانت لقومه. كانت معجزة حسية . مَنْ رآها آمن بها . ومَنْ لم يرها قرأها خبرًا.. ولولا أن معجزات الرسل ذُكرت في القرآن لتُركت لعقول الناس. مَنْ شاء صدقها ومَنْ شاء لم يصدقها . ولكن لأن الله تبارك وتعالى ذكرها في قرآنه فآمنا بها . ولكن الرسل السابقين . فقد كانت معجزاتهم حسية أو كونية . رآها من عاصروهم . فنحن الآن لا نستطيع أن نأتي بعصا موسى لنقول . إن هذه معجزته . ولا أن نعيد معجزة إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص التي جاء بها عيسى

معجزة الخصوص الخالدة

ولكن رسول الله محمداً ﷺ هو خاتم المرسلين. لذلك جعل الله سبحانه وتعالى معجزته في نفس منهجه.. وهو القرآن الكريم يعطينا في كل عصر معجزا . فكل الرسالات التي سبقت رسول الله ﷺ كانت محدودة الزمان والمكان .. ولكن رسالة الإسلام جاءت إلى الناس كافة في كل زمان ومكان بخلاف معجزات حسية وكونية عايشت حياته طفولة وشبيبة ورسالة . واختار الله سبحانه وتعالى لانطلاق هذا الدين أول بيت وضعه للناس في الأرض . وقد وهب الله محمداً قبل البعث حكمة يوسف في تأويل الأحلام . وكان لا يرى رؤيا إلا تتحقق.. ووهبه الله الصدق

الفطري والصدق اليقيني في أن ما يقوله محمد هو الحق، ووهبه الله القدرة على أن يرى الكون ببصيرة الإيمان، وليس بالقلب المغلَّف من الغرور الذي كان عليه أهل زمانه.

أولى آيات الوحي

كل هذا كان إعداداً لاستقبال القرآن.. وتمضي الأيام ومحمد في الغار يتأمل ويتعبد وتصفو نفسه ويرى نور الحق إلى أن يأتي الملَكُ الكريم جبريل.. ويُفاجأ محمد بالملك وهو يحتضنه بقوة. ويقول له اقرأ.. ويحدث اللقاء بين نور مخلوق منه ملك.. وبشرية مخلوق منها رسول الله ﷺ.. يُحدث هذا اللقاء اهتزازاً شديداً في جسد رسول الله ﷺ.. وعندما يبلغ منه الجهد آخر مبلغه.. يتركه الملك حتى يستريح الجسد البشري من قوة اللقاء بينه وبين نور الملك. ثم يحتضنه جبريل مرة أخرى حتى يبلغ الجهد منه أكثر مبلغ ليقول الملك: اقرأ.. ويقول رسول الله ﷺ بصدقه الفطري ما أنا بقارئ.. أي: لا أستطيع أن أقرأ.. ويبلغ الجهد من رسول الله ﷺ.. فلم يَعُدْ يحتمل لقاء جسد بشر ونور الملك.

وعندما يستريح رسول الله ﷺ ويستعيد قواه.. يضمه الملك ضمَّة ثالثة، ويقول له:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١)﴾ [العلق]

والأمر بالقراءة لا يكون أمراً إلا إذا كان في استطاعة المأمور ولكن صدور الأمر من الله جل علاه لمحمد ﷺ بالقراءة يعني أمراً لفطرته النقية الطاهرة وما تحتويه من قيم فاضلة تكمن فيها

مرادات الله ، فكان الأمر يكون في استطاعة المأمور إذا كان الأمر أهلًا لذلك أولًا ، وقد كان

ويصل محمد عليه الصلاة والسلام إلى ذروة الجهد ويتصبب عرقًا . إنه لم يَعُدْ يحتمل لقاءً آخر.. لقد بلغ الجسد البشري من الجهد الأقصى ما يطيق . وحينئذ ينصرف الملك جبريل عليه السلام . ويترك رسول الله ﷺ في الغار

مع هذا اللقاء الذي هو أشرف لقاء في البشرية كلها لنا أكثر من وقفة . السؤال الأول : كيف يأتي جبريل عليه السلام ويطلب من رسول الله ﷺ أن يقرأ ؟.. مع أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب.. وهل علم الله الذي أعد محمدًا أميًا لا يقرأ ولا يكتب قد غاب عنه ذلك؟ وأيهما كلامه صحيح.. الملك الذي قال اقرأ ؟ أو رسول الله ﷺ الذي قال : ما أنا بقارىء ؟

لقد كان طبيعيًا أن يقول الرسول : ما أنا بقارىء.. ولكن الذي يثير التساؤل لماذا قال له جبريل عليه السلام : اقرأ ؟ . نقول : إن جبريل حين قال اقرأ كان صادقًا.. وأن رسول الله ﷺ حين قال ما أنا بقارىء كان صادقًا ؟.. وكيف يكون ذلك ورسول الله ينفي ما يطلبه منه جبريل . نقول : إن جبريل نزل بأولى آيات الرسالة على محمد ﷺ وقال له :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) ﴾ [العلق]

أي : أن الله يعلم يا محمد أنك لا تقرأ ولا تكتب ، ولكنك على الفطرة النفسية تتلقى القراءة من العناية الإلهية فاقرأ باسم ربك أي : أن الله هو الذي سيعلمك ، لتكون أيها الرسول الأمي معلمًا

البشرية كلها فتأخذ عنك الهدى والعلم الحقيقي والنور.. أنت أيها النبي الأمي سيعطيك الله من العلم ما يفوق علم البشر جميعاً فقد خُلِقْتَ في الغار ، ونُحِّيتَ بالتوحيد ، فتجلى الله عليك بالزاد

أما أولئك الذين أفنوا أعمارهم في القراءة والكتابة . ووصلوا إلى أكبر درجات العلم.. سيأتونك أنت أيها النبي الأمي ليأخذوا عنك علم الدنيا والآخرة ، ويتتلمذوا على يديك لتصبح أنت العلم. وهم الذين يأخذون عنك العلم لأنك لم يُعلِّمك بشر.. ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الذى علَّمك . وعلَّمك ما لم تعلم البشرية كلها.

وهكذا كان اللقاء الأول بين رسول الله ﷺ وجبريل . لقاء يخبره فيه أنه سيحمل العلم إلى الدنيا كلها

أما اللقاء الثاني فهو لقاء استقبال القرآن المعجز على مدى الأيام والزمان.

يقول الحق سبحانه

﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩)﴾ [الكهف]

فهذا النبى الأمى الذى لم يقرأ كلمة ولم يكتب كلمة سيصبح مُعلِّماً البشرية كلها وكانت هذه أول معانى المعجزة لرسول الله ﷺ يقول الحق سبحانه

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١)﴾ [البقرة]

ورقة بن نوفل
وبشارته للنبي ﷺ

أخذ رسول الله ﷺ يجول ببصره في الغار.. ثم انطلق مسرعاً إلى بيته.. إلى خديجة رضي الله عنها وجسده الشريف يرتجف.. ودخل الرسول عليه الصلاة والسلام وهو مضطرب فلما رأته خديجة أحست بأن شيئاً جليلاً قد حدث، وأرادت خديجة رضي الله عنها أن تتحدث معه ولكنه ﷺ كان في حالة لا تسمح بالحديث فقال: «زملوني زملوني»[1].. أي غطوني.

ولما ذهب عن رسول الله ﷺ الروع.. روى لخديجة رضي الله عنها ما حدث.. وقال لها: قد خشيت على نفسي أن يكون أصابني مسٌ من الجن.. فقالت خديجة: كلا والله لا يخزيك الله أبداً. إنك لتصل الرحم. وتقري الضيف.. وتحمل الكلَّ. وتكسب المعدوم.. وتُعين على نوائب الحق.

وكانت خديجة رضي الله عنها في ليلة نزول الوحي قد انتظرت رسول الله ﷺ. ولكنه تأخر. فبعثت رسلها فعادوا دون أن يجدوا رسول الله.. ولم تكد خديجة تسمع ما قاله رسول الله ﷺ إلى ابن عمها ورقة بن نوفل. وكان شيخاً كبيراً يدين بالنصرانية وقرأ كتبها.. وسمع الكثير من أهل التوراة والإنجيل.. وقالت له: يا ابن عم اسمع ما حدث لابن أخيك. فأخبره رسول الله ﷺ بما رأى وسمع.

فقال ورقة بن نوفل: لقد جاءك الناموس الأكبر الذي كان ينزل على موسى. والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة

---

[1] متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (٣) ومسلم في صحيحه (١٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

والمكذبين والمؤذين.. ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك.. فقال رسول الله ﷺ أو مُخرجيَّ هم؟.. فقال ورقة: نعم.. لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عُودي. إنْ أدركتُ يومك لأنصرنك نصراً مؤزراً.

ليلة القدر

وهكذا كانت ليلة نزول القرآن أول لقاء بين رسول الله ﷺ وجبريل عليه السلام.. لقاء في الغار الذي طالما تعبَّد فيه رسول الله عليه الصلاة والسلام وتأمل. لقاء بين كلام الله وأشرف خلق الله.. إنها ليلة القدر التي جعلها الله خيراً من ألف شهر. قيامها والعبادة فيها تساوي في الثواب عبادة أكثر من عبادة ثلاثة وثمانين عاماً.. لقد كرم الله هذه الليلة تكريماً عظيماً. لأنها هي الليلة التي بدأ القرآن فيها يمارس مهمته في الأرض.

ولقد دار جدل كبير في أن القرآن هو كلام الله. وكلام الله صفة من صفاته.. وكلام الله أزلي فكيف يقال إن القرآن قد نزل في هذه الليلة؟. نقول: إن القرآن كلام الله أزلي موجود في اللوح المحفوظ. وأنه ليلة نزول جبريل نزل القرآن إلى السماء الدنيا ليمارس مهمته في الأرض. ونزل إلى السماء دفعة واحدة. ثم نزل به جبريل كما شاء الله. ووقتما شاء الله. تثبيتاً لرسول الله وإبلاغه للمنهج.. وطبقاً للأحداث التي قدرها الله. فنزول القرآن وكان نزول الوحي الكريم بأول سورة في القرآن الكريم. هو بداية الهداية للكون كله.

لقد اختار الله محمداً عليه الصلاة والسلام رسولاً ليبلغ الدنيا

آخر بلاغ من الله.. بالمنهج المتكامل لمسيرة الإنسان في الكون حتى يوم القيامة.. وما دام هذا البلاغ من الله قد جاء آخر بلاغ.. فلابد أن يكون مستوفياً لكل ما يمكن أن يؤدى معنى القيم في حركة الحياة بحيث لا يترك داء إلا عالجه. ولم يأتِ هذا المنهج ليعالج الذاوات ساعة بداية مهمته في الأرض.. بل جاء ليعالجها إلى يوم القيامة. ولذلك فإن القرآن الكريم معجزة وقت نزوله.. ومعجزة في يومنا هذا.. ومعجزة للأجيال القادمة التي ستلتي معنا حتى قيام الساعة.

مدينــة العــدل

لقد وضع القرآن الكريم المبادىء التي لا يمكن أن يصلح الكون إلا بها.. ولأن الله سبحانه وتعالى عليم لا يخفى عليه شيء فإنه وهو المشرع الأعلى هو وحده القادر لأن يُشرِّع لكل زمان ومكان.. ذلك أن البشر حين يضعون تشريعاتهم يعرفون أشياء وتغيب عنهم أشياء.. ولذلك نرى القوانين البشرية تتبدل وتتغير.. ولا يمضي على القانون البشرى سنوات حتى يحتاج إلى تعديل.. لأن هناك مشكلات ظهرت.. لم يكن الذين وضعوا هذه القوانين منتبهين لها.

ولذلك فإن القوانين الوضعية تعاني من كثرة التبديل والتغيير والإلغاء والاستحداث.. ولكن الحق سبحانه وتعالى حينما يضع قانوناً لا يغيب عنه شيء لأنه عليم بما في كونه.. عليم بما سيحدث فيه إلى يوم القيامة.. عليم بالنفس البشرية التي خلقها.. ولذلك يأتي التشريع الإلهي صالحاً لكل زمان ومكان.. وأنه من

وضع العليم القدير.. والله سبحانه وتعالى حكيم.. ولذلك فهو يضع كل شيء في موضعه بحكمة واقتدار لتكون الدنيا كلها مدينة للعدل .

وبظهور العدل في الدين الجديد.. بدأ فجر الإسلام يشرق على الدنيا. ليحكم عصورها ويحكم سلوكها

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥)﴾ [الشعراء]

الفصل الرابع

الرسول يدعو عشيرته

جاءت الرسالة إلى محمد ﷺ. وكان على رسول الله عليه الصلاة والسلام أن يواجه مجتمعاً من أفسد مجتمعات الأرض.. مجتمعاً يملؤه الطغيان والكفر حتى حرمة بيت الله الحرام.. فأدخل الأصنام إلى البيت الذي اختاره الله في الأرض.. وعمل على فساد أطهر بُقعة في هذا الكون.

وكان على النبي الجديد أن يواجه هذا كله.. أن يطهر البيت من الأصنام.. أن يعلن المساواة بين الناس فقيرهم وغنيّهم.. أبيضهم وأسودهم

لقد جاءت الآية الأولى في القرآن الكريم بوسيلة العلم للإنسان وهي القلم ووسيلة المعرفة للإنسان وهي القراءة.. فما لم يدون بالقلم ضاع وانتهى.. ومن لم يقرأ لا يتعلم.

والله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ، وخلق فيه القدرة على أن يرث الحضارات.. والعقل البشرى هو القادر وحده بين مخلوقات الأرض على أن يرث الحضارات.. ويزيد عليها . لذلك فإن كل جيل من البشر يبدأ من حيث انتهى الجيل الذى قبله ويضيف.. بذلك تتقدم الحضارة الإنسانية إلى أن تبلغ ما قدّره الله لها.

والإنسان له وسائل معرفة خلقها الله سبحانه وتعالى له ليتعرف بها على الكون . وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل]

لماذا فضَّل الحق سبحانه وتعالى السمع على البصر؟ لأن

السمع هو وسيلة التعلم الأولى في الإنسان. فأنت ترى لنفسك. ولكنك تسمع عن غيرك.. والأعمى يستطيع أن يتعلم.. ويصل إلى أعلى درجات العلم بالسمع بأن يقرأ له غيره. ولكن الأصم لا يستطيع أن يكون عالماً

والله سبحانه وتعالى حدد في هذه الآية الكريمة وسائل العلم التي أعطاها الإنسان. فالإنسان يسمع ويرى، ثم يستقر العلم في فؤاده، فيُكَوِّن حقائق في نفسه يتصرف على أساسها.. هذه هي وسيلة العلم البشري.. وما زالت هي الوسيلة حتى الآن.. مع أن الإنسان له حواسٌ أخرى كاللمس والتذوق وغير ذلك، ولكنها كلها لا تعطيه الحضارة الإنسانية. بل تعطيه مجرد معلومات عن أشياء حوله. ولكنها لا تنقل له حضارة الإنسان

ولكي تعلم يقيناً أن البصر وحده لا يكفي للعلم. وأنت تشاهد فيلماً في التليفزيون أغلق مفتاح الصوت وشاهد بعينيك فقط. لن تفهم شيئاً. حاول أن تستخدم باقي حواسك كلها غير الأذن لن تفهم شيئاً

إذن. الأذن هي وسيلة التعلم الأولى وهي تبدأ العمل فور ولادة الطفل. بينما العين تأخذ أياماً حتى تبدأ في أداء مهمتها. ولذلك كان القرآن كلاماً يُقرأ وليس شيئاً يشاهد.. لأن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يستخدم الوسيلة الحقيقية للعلم في الإنسان. وهي الأذن حتى يبلغ العلم القرآني كل الناس

رسول الله ﷺ حين نزل عليه الوحي. ظل أياماً وهو حائر فيما

رأى وسمع . وأرادت السيدة خديجة رضي الله عنها أن تقطع الشك باليقين.. عندما جاءه جبريل وهو في بيت خديجة قالت له: أترى الملك الآن؟.. قال : نعم فكشفت خديجة عن وجهها وسألته.. أترى الملك الآن؟.. قال : لا.. قالت خديجة : إنه ملك وليس شيطاناً. لأنها علمت بفطنتها أن الشيطان وقح لا يختفي عندما تزيح المرأة الخمار عن وجهها ورأسها.. أما الملك فهو سامع مطيع لأمر الله.. ويطمئن قلب الرسول ﷺ ويرتاح فؤاده ، ولقد كانت خديجة رضي الله عنها أول مَنْ آمن بالله ورسوله.. صدقت بنبوة محمد . حتى أنها بُشِّرت ببيت من اللؤلؤ في الجنة.

انقطاع الوحي فترة

ويفتر الوحي عن رسول الله ﷺ.. ويذهب الرسول إلى الغار لعلّ الوحي يأتيه فلا يأتيه جبريل.. ويذهب الرسول إلى بيت خديجة لعلّ الوحي يأتيه فلا يأتي وبدأ الشك في نفس الرسول الكريم.. ما الذي حدث؟!. هل هو رسول الله حقاً أم لا؟

وبينما الرسول يمشي في شِعْب من شعاب مكة.. سمع صوتاً يقول له : إنك حقاً لرسول الله.. ونظر رسول الله ﷺ أمامه فلم يرَ أحداً.. ونظر خلفه فلم ير أحداً . ونظر عن يمينه وعن شماله فلم يجد أحداً

إذن . من أين جاء هذا الصوت.. ورفع رسول الله ﷺ بصره إلى السماء ، فرأى جبريل يقول له إنك حقاً لرسول الله.. وأحدث هذا الاتصال بين الملك والرسول البشر في جسد رسول الله هزة

شديدة.. وتصبّب العرق من جسده الشريف . وأسرع إلى بيت خديجة . واتصال الملك به قد هزّ جسده.

وعندما دخل سألته خديجة رضي الله عنها : ماذا بك؟ ولم يُجب رسول الله ﷺ لكنه قال : «دثروني دثروني» وكانت عليه الأغطية، فقد كان يرتعد بشدة.. وتلك أول سورة بعد «اقرأ». جاءه جبريل وهو في هذه الحال.. فأوحى إليه قول الحق سبحانه وتعالى

﴿يا أيها المدثر (١) قم فأنذر (٢) وربك فكبر (٣) وثيابك فطهر (٤) والرجز فاهجر (٥) ولا تمنن تستكثر (٦) ولربك فاصبر (٧)﴾ [المدثر]

وانصرف جبريل عليه السلام والرسول ما زال يتصبب عرقاً وعندما أفاق أراد أن يخرج.. وانزعجت السيدة خديجة من خروجه وهو في هذه الحالة. وقالت له : استرح يا محمد قليلاً.. فقال لها الرسول عليه الصلاة والسلام : «لم يعد هناك وقت للراحة يا خديجة» .

ثم توالت الآيات. الحق سبحانه وتعالى يطلب من رسول الله ﷺ أن يبدأ إبلاغ الرسالة بأن ينذر المحيطين به . وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى

﴿وأنذر عشيرتك الأقربين (٢١٤) واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين (٢١٥) فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون (٢١٦)﴾

[الشعراء]

من هنا كانت البداية

ويدعو رسول الله ﷺ عشيرته إلى الطعام في بيته ويقول لهم «ما أعلم أحداً من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به. لقد جئتكم بخيري الدنيا والآخرة، وقد أمرني ربي أن أدعوكم إليه. فأيكم يؤازرني على هذا الأمر».

ويرفض كل الحاضرين الاستجابة لدعوة رسول الله ﷺ إلا علي بن أبي طالب. وكان صبياً لم يبلغ الحلم فيقول: أنا يا رسول الله عونك. أنا حرب على من حاربت. أما أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقد آمن برسول الله ﷺ بمجرد أن بلغه. ولم يطلب برهاناً ولا دليلاً. إنما قال: أنا لمؤمن.

وبالرغم من الجحود والعداوة التي قابلت بها عشيرة رسول الله دعوته فقد بدأت الدعوة تنتشر. والناس يدخلون في الإسلام. وكان أول من دخل في الإسلام بعد أبي بكر رضي الله عنه الزبير بن العوام، وعبدالرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص. وطلحة بن عبيد الله، وأبو عبيدة بن الجراح. والأرقم بن أبي الأرقم، وعثمان بن مظعون، وعبيدة بن الحارث، وسعيد بن زيد رضي الله عنهم أجمعين.

وتمضي كلمة الإيمان فتنتشر دعوة الإسلام. ويؤمن الناس سراً أولاً.. خوفاً من بطش صناديد قريش، فيجتمعون سراً مع رسول الله في دار الأرقم بن أبي الأرقم يتدارسون القرآن ويؤدون الصلاة كما كان يؤديها إبراهيم عليه السلام ركعتين في كل صلاة. ويسجدون له سبحانه وتعالى.

قد يتساءل بعض الناس: كيف سجد المسلمون، ولم تنزل الصلاة المفروضة بعد؟

نقول إن السجود كان مفروضاً في كل الأديان. بل إنه قبل أن يخلق آدم كان السجود علامة من علامات العبادة لله سبحانه وتعالى جل جلاله:

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ... ﴿١٥﴾ ﴾
[الرعد]

وكل مخلوقات الله ساجدة مُسَبِّحة في الدنيا والآخرة.. ما عدا الإنس والجان الذين أعطوا حق الاختيار في الحياة الدنيا، وسيجدهم في الدنيا طوعاً.. فإذا أخذنا قول الحق سبحانه وتعالى في سورة يوسف:

﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾
[يوسف]

وقوله جل جلاله:

﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

[آل عمران]

نعرف أن السجود كان معروفاً ومأموراً به في كل الديانات.

ثم تمضي الدعوة.. ويأمر الله رسول الله ﷺ أن يجهر بالدعوة. ويذهب النبي عليه الصلاة والسلام إلى الصفا بجوار الكعبة المشرفة وينادي. يا معشر قريش. يا معشر قريش! فيقبل عليه الناس.. فيقول لهم. أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تغير عليكم، أكنتم مصدقون؟ قالوا: نعم. أنت عندنا غير مُتهم. وما جرّبنا عليك كذباً قط. قال الرسول: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.. يا بني عبدالمطلب، يا بني عبد مناف.. يا بني زُهرة

يا بني تميم.. يا بني مخزوم.. يا بني كعب. إن الله يأمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين .. وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ، ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا: لا إله إلا الله

فنهض أبو لهب وصاح قائلاً: ألهذا جمعتنا ؟ تباً لك

مراحل الصراع

بين الحق والباطل

وبدأ الصراع بين الحق والباطل.. وأحست قريش بالخطر.. لقد اختار الله سبحانه وتعالى بيته الكريم في مكة لتنبثق منه صيحة الحق.. ولتبدأ في آذان سادة العرب ؛ لأن قريشاً كانت لها السيادة في الجزيرة العربية.. ففي مكة بيت الله الذي يحج إليه الجميع.. ولذلك كانت القبائل تتحاشى أن تتعرض لقريش ؛ لأنها تعلم أنهم حينما يحجون سيكونون تحت رحمة قريش . فيحسبون لذلك ألف حساب .

بدأت صيحة الإسلام في آذان سادة العرب لتتهزهم.. وليعلموا أن الحق سبحانه وتعالى عندما يريد أن ينزل دينه إلى الأرض يجعل الصرخة الأولى للإيمان في آذان السادة من قريش حتى لا يقال: إنهم قوم ضعفاء التفوا حول الرسول.

ولكن الصرخة الأولى كانت في آذان أقوى الأقوياء تهزهم هزاً ، ولكن الإسلام لم يحقق النصر في مكة. ولكنه حققه في المدينة . حتى لا يقال إن قريشاً سادة العرب انتصرت لواحد من أبنائها.. ولكن ليعرف الجميع أن الله وحده هو الذي نصر دينه.. وأن محمداً رسول الله أخذ العزة بدين الله . ولم يأخذها بأسباب البشر

وأخذ الصراع بين الحق والباطل إلى عدة مراحل.. المرحلة الأولى هي مرحلة الإغراء.. حينما حسب أهل قريش أن رسول الله ﷺ يمكن أن تغريه الدنيا.

والمرحلة الثانية هي مرحلة الإيذاء.. بأن يؤذوا الرسول والمسلمين.

والمرحلة الثالثة هي مرحلة المقاطعة.. أن تقاطع قريش بني هاشم . علّهم يُسْلِمون لهم رسول الله ﷺ

والمرحلة الرابعة هي محاولة قَتْل رسول الله عليه الصلاة والسلام

وقبل أن تبدأ المرحلة الأولى حاول الكفار أن يُشككوا رسول الله في أنه مكلف بالرسالة. فقالوا لست نبياً ولا رسولاً.. ولكن الله سبحانه وتعالى ثَبَّته على الإيمان . وفي هذا يقول الحق جل جلاله

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)﴾ [الرعد]

ولم يجد هذا التشكيك شيئاً.. فاستمرت الرسالة تنتشر.. وعدد المؤمنين يزداد.. حينئذ قال الكفار : نعطيه الدنيا لعله يترك هذه الدعوة وينصرف عنها.. وقالوا : إن كنت جئت بهذا الحديث تطلب مالاً.. جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً. وإن كنت تطلب الشرف فينا سوّدناك علينا.. وإن كنت تريد مُلكاً ملكناك علينا.. وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك رئيّاً تراه قد غلب عليك. والرئى هو الجن.. بذلنا من أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه.

ولكن كل هذه العروض ومُغريات الدنيا لم تَهُزّ من نفس رسول الله ﷺ ولا قطرة من الإغراء.. إنه جاء ليدعو الناس إلى العمل من أجل الآخرة.. لا يغريهم في ذلك مال ولا جاه في الدنيا.. لأن الآخرة هي الحياة الخالدة.. وفيها النعيم بقدرة الله.. ولم تكن الدنيا تساوي عند الله ورسوله جناح بعوضة

وعندما أراد عمه أبو طالب أن يقنعه بالعرض الدنيوي الذي تقدم به كفار قريش.. قال رسول الله ﷺ : «يا عمّ والله لو وضعوا الشمس في يميني . والقمر في يساري على أن أبلغ هذا الأمر أو أهلك دونه ما تركته»[1]

وهكذا وضع الرسول الكريم الدنيا التي يتقاتل عليها الناس في موضعها الحقيقي . فليست هذه هي الحياة التي يرجوها المؤمن.. إن الدنيا عند المؤمن هي وسيلة للوصول إلى رضا الله في الآخرة . وفشل الإغراء.. وفشلت المرحلة الأولى . واقتنع الكفار أنهم لن يستطيعوا إثناء رسول الله ﷺ عن مهمته بالإغراء بكل كنوز الدنيا.

وبدأت المرحلة الثانية.. قالوا لأنفسهم : إذا كنا لم نقدر على محمد فإننا نقدر على أتباعه . سنعذب كل من يؤمن برسالة محمد . سنعذبهم تعذيباً يصل إلى حد القتل. حينئذ سينصرف الناس عنه ولن يجد واحداً يؤمن برسالته.. وبدأت مرحلة التعذيب. وكان آل ياسر هم الذين قدموا أول شهداء في الإسلام.. وآل ياسر جاءوا من اليمن وأسلموا في مكة. وكانوا ياسر

(1) أورده ابن هشام في السيرة النبوية (1/ 266) معزواً لابن إسحاق

وزوجته سمية وعمار بن ياسر.. حاول أبو جهل والكفار أن يفتنوهم عن دينهم فلم يفلحوا، فأخذوهم إلى البطحاء، وراحوا يعذبونهم.

ومر رسول الله ﷺ بهم وهم يُعذبون، فقال:

«صبرًا آل ياسر فإن موعدكم الجنة»(١) فقام أبو جهل يطعن سمية بحربته في بطنها، حتى قتلها وقتلوا زوجها.. وتوالت أحداث التعذيب والإيذاء على المسلمين الذين كانوا قلة وكانوا أذلة.. ولكن هذا التعذيب لم يجعل واحداً منهم يرتد عن دينه، فلقد دخل قلوبهم نور الإيمان.. وتمسكوا بالدين الحق.

كان الواحد منهم يوضع عارياً على الصخر الملتهب، ويوضع الحجر الثقيل فوق صدره ويضرب بالسياط، فيقول: أحد أحد. وكانت السماء ترقب ما يحدث.. وكان الحق سبحانه وتعالى يُنزل الآيات التي تُثبت المؤمنين وتُبشرهم بالنصر، فنزلت الآية الكريمة:

﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر]

وعندما نزلت هذه الآية قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أي جمع هذا ونحن قلة مستضعفون؟. فلما جاءت غزوة بدر وانهزم الكفار، وولوا الأدبار قال: صدقت يا ربي:

﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر]

إيذاء الرسول ﷺ

ولم يَسلم رسول الله ﷺ من الإيذاء، فكانت أم جميل، زوج أبي لهب، تلقي في طريقه القاذورات والأشواك، وهو راهب

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/١٤٠) من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه

ليصلي في الكعبة.. وعندما نزلت السورة الكريمة :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ﴿٥﴾ ﴾ [المسد]

أسرعت أم جميل ومعها حجر ضخم إلى الكعبة.. لتلقي الحجر على رأس رسول الله ﷺ.. وكان الرسول الكريم يجلس بجوار أبي بكر.. وتطلعت فلم تره.. وسألت أبا بكر.. أين صاحبك؟.. فسكت.. وانصرفت.

وقال أبو بكر لرسول الله ﷺ إنها لم تراك.. فقال الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام.. لقد أخذ الله ببصرها عني[1].

وذهب أبو جهل ليقتل رسول الله ﷺ بحجر ضخم، وانتظر في الكعبة حتى جاء رسول الله ﷺ وسجد.. وحينئذ انطلق أبو جهل لينفذ ما أراد.

وقبل أن يصل أبو جهل إلى مكان رسول الله ﷺ سقط الحجر من يده.. فانصرف وقد ملأه الرعب.. فسألوه.. ماذا حدث؟.. قال: رأيت وحشاً غريباً كاد يفتك بي.. وسئل رسول الله عليه الصلاة والسلام عن هذا.. فقال: هذا جبريل.. ولو تقدم أبو جهل خطوة لهلك[2].

واستمر الإيذاء، ولكن نور الله كان أقوى من أسباب البشر.

وفي كل يوم يتزايد عدد المؤمنين بدين الله.. كان من قوة هذا الدين أنه يُفرّق بين المرء وزوجه.. وبين الأب وابنه.. فالقلوب المؤمنة لا تعرف إلا قوة الإيمان.. ولا تتعلق بالأنساب ولا بالأزواج.

وفشلت أسباب البشر في أن تمنع نور الله من أن يدخل القلوب..

(١) أخرجه ابن هشام في السيرة النبوية (١/٢٥٦).
(٢) أخرجه ابن هشام في السيرة (١/٢٩٩).

حيرة قريش

كان كفار قريش في حيرة من هذا الدين الجديد.. أي شيء هذا الذي يمتلك القلوب، ويسيطر على النفوس حتى لا ترى إلا الله؟ ولا ترغب إلا في دين الله.. إن هذه القوة فوق قوة البشر.. ولم يستطيعوا تعليلها. وقالوا: ساحر سحر أعين الناس وقلوبهم. ونسوا أن المسحور لا يملك إرادة مع الساحر.. فقالوا مجنون فرد الله عليهم بقوله تعالى:

﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)﴾ [القلم]

وكان هذا أبلغ رد؛ لأن المجنون لا يمكن أن يكون على خلق عظيم لأنه لا يعقل تصرفاته. وإذا جلس مع الناس.. فإنه دون سبب يشتمهم أو يسبهم.. وتصرفاته كلها ليس فيها خلق عظيم أو غير عظيم: لأنه لا يدري ماذا يفعل.

وقالوا: شاعر. ونسوا أن رسول الله ﷺ لبث فيهم أربعين سنة قبل البعث لم يقل فيها بيتاً واحداً من الشعر. ولم يشتهر بالبلاغة الشعرية.

ولكن هذا هو خلق الكفار يعميهم الله فلا يفطنون إلى أنهم في ادعاءاتهم يقدمون الدليل الإيماني على صحة رسالة محمد ﷺ بل إنهم حين غاب الوحي عن رسول الله ﷺ فترة.. قالوا: رب محمد قلاه.. أي تركه وهجره. وهم لم يدروا أنهم بذلك قد فضحوا أنفسهم.. لقد كانوا يدعون أن ما يوحى إلى محمد ﷺ لا يأتيه من رب كريم. بل إنه يفتري عليهم. فلما توقف الوحي فترة اعترفوا أن لمحمد ﷺ رباً يوحي إليه

وأن هذا الوحي يأتي من الله. فقالوا: ربُّ محمد قلاه. ونشروا وهم يدّعون ذلك لأنهم يثبتون الرسالة.. ويثبتون أن وحياً من الله ينزل على رسوله. فنزلت الآية الكريمة:

﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥)﴾

[الضحى]

إيمان المسلمين الأوائل

ونحن نتساءل: لماذا ترك الحق المسلمين الأوائل يواجهون هذا التعذيب؟ ألم يكن الله سبحانه وتعالى قادراً من أول يوم أن يُعِزّ دينه، وأن يُوقف إيذاء الكفار عن المؤمنين برسول الله؟ لماذا اختار الله سبحانه وتعالى ذلك الرسول اليتيم الأمي ليحمل الدين الخاتم إلى الدنيا كلها؟

ألم يكن الله سبحانه وتعالى قادراً على أن يُنزل رسالته على أحد كبار زعماء القبائل في مكة لأصحاب النفوذ والسلطان؟ ألم يكن هذا ممكناً؟ وكان في هذه الحالة سيكون عدد المؤمنين كبيراً، وتكون الدعوة أسهل في انتشارها وفي عدد المؤمنين بها، وتكون مقاومة الدعوة أقل. لقد تمنى الكفار ذلك.

وينقل الحق سبحانه وتعالى الصورة لنا، فيقول:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾

[الزخرف]

أي : أنهم تمنوا أن ينزل القرآن على أحد أصحاب النفوذ والسلطان.

نقول : إن الحق سبحانه وتعالى أراد لدينه بداية الإيمان الحقيقي

أراد مؤمنين بهذا الدين لا يرجون ولا يطلبون إلا الجنة.. ولا يكون دخولهم في الإسلام طمعاً في مغنم دنيوي . فهؤلاء المسلمون الأوائل هم الذين اختصهم الله سبحانه وتعالى بحمل الرسالة إلى الدنيا كلها.. ولو أنهم دخلوا الدين عن إيمان غير حقيقي . لانحرفوا بالإسلام وتعاليمه من أجل الدنيا.. ولكن ربهم أراد لهم أن يكون إيمانهم ملء القلب لا تهزه الدنيا كلها.

ولو أن هذا الدين نزل على رجل من سادة مكة . لدخل الناس الإسلام نفاقاً ورياء وطلباً للدنيا . تماماً كما يلتف المنافقون حول الحاكم ذي النفوذ والسلطان لتحقيق منافعهم الشخصية. فإن زال السلطان عنه انفضُّوا من حوله

ولو أن الإسلام بدأ باجتذاب المنافقين والباحثين عن الدنيا.. لانتهى بمجرد زوال الدنيا عن صاحب الدعوة . ولكن الإسلام لابد أن يبدأ بقلوب يملؤها نور الله . يُعذَّب الواحد منهم فلا يترك دينه ويُقتل وهو يقول . لا إله إلا الله . محمد رسول الله.. ويغتصبون ماله وورقه ويعذبونه ويرى أهوالاً كثيرة.. ولكنه لا يتزحزح عن إيمانه . لذلك كان المؤمنون الأوائل لا يريدون إلا الجنة . ولا يؤثر فيهم العذاب . ولا تؤثر فيهم أسباب الدنيا ؛ لأن إيمانهم أقوى من الدنيا كلها

وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) ﴾ [آل عمران]

العقيدة لا المال

ولذلك نجد مثلاً أن صُهَيباً الرومي عندما أراد أن يهاجر إلى المدينة طلبوا منه أن يترك أمواله كلها في مكة فلم يتردد.. وعندما علم رسول الله ﷺ بالقصة قال عليه الصلاة والسلام :

« ربح البيع ، ربح البيع »[(١)]

والإسلام جاء ليبني الإنسان من الداخل بناء صلباً لأنه لابد أن الإنسان هو سيد هذا الكون . فإذا أحسن بناؤه ساد العالم.. وإذا أسيء بناؤه لا تقوم له حضارة. وهذا صحيح منذ يومنا هذا.. وسيبقى صحيحاً إلى يوم القيامة. فإذا نظرنا في العصر الحديث إلى دولة كاليابان نجد أنها من أغنى دول العالم وأكثرها تقدماً في الصناعة. مع أنه لا توجد مواد خام في اليابان يمكن أن تقوم عليها أية صناعة .

بينما هناك دول أخرى تملك كل مُقوِّمات الصناعة من مادة خام وموارد طبيعية ومع ذلك لم تقم فيها صناعة واحدة.. وهناك دول فيها من الأرض الزراعية ما يكفي لتطعم العالم كله . ولكنها تعاني مجاعة وقحطاً . وتستورد الطعام من الخارج.

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (١/ ٢٤٠) من حديث سعيد بن المسيب ، وعزاه لابن سعد والحارث بن أبي أسامة في مسنده وأبي نعيم في الحلية وغيرهم

إنى فالمؤثر في الحضارة الإنسانية هو الإنسان.. إنْ صلُحَ صلح كل شيء، وإنْ فسد فسد كل شيء. ومن هنا فإن الإسلام حرص على أن يبني الإنسان المسلم البناء الإيماني القوي الذي يجعله سيد هذه الأرض. ولذلك ما تمسك المسلمون بدينهم إلا زادوا رفعة وتقدماً وحضارة.. وما ترك المسلمون دينهم إلا زادوا تخلفاً وضعفاً

ومن هنا كانت العناية ببناء الإنسان المسلم في الأيام الأولى للدعوة نموذجاً لذلك الإنسان الذي تبهر الدنيا، ولا تستطيع الدنيا أن تهزمه لأنه لا يريد منها شيئاً.. ولذلك عندما ذهب خالد ابن الوليد إلى حرب الفرس قال: أتيتكم برجال يحبون الموت كما تحبون أنتم الحياة

هكذا كان المسلمون الأوائل أعينهم على الآخرة، وكانوا حملة الدعوة إلى العالم كله، فكانوا المثل والقدوة التي دفعت الناس إلى الدخول في الإسلام، فالمبشر بالدين لابد أن يكون قدوة، وإلا فإن أحداً لا يستمع إليه. وهذا ينطبق على الدين وحده.. ولا ينطبق على علوم الدنيا كلها. فالناس يأخذون العلم عن عالم كيمياء فاسق، أو طبيب لا يلتزم بخلق كريم، وأي عالم نسبي يستهين بالقيم.. ولكنهم لا يأخذون دينهم إلا عن عالم يتمسك بمنهج الدين وبالسلوك الحسن. وينصرفون عنه إذا كان في سلوكه ما يشين

واستمرتْ فترة الإيذاء سنوات، حاول خلالها الكفار أن يقنعوا بني عبد المطلب بأن يسلموا لهم رسول الله ﷺ لكن

بني عبد المطلب رفضـوا ، وخاصة أبا طالب عم رسول الله ﷺ.. لقد رفض أن يتخلى عن ابن أخيه وتسليمه للكفار.

وهنا بدأ الكفار يفكرون في طريقة أخرى.. هي أن يقاطعوا بني عبدالمطلب حتى يُسلّموا لهم رسول الله ويتخلوا عنه . وكانت هجرة المسلمين إلى الحبشة ورفض النجاشي تسليمهم لكفار قريش . وانتشار الإسـلام بين القبائل يملأ قلوبهم حقداً ونارا

ولذلك اجتمعوا عند الكعبة ، وتعهدوا بأن يقاطعوا بني عبدالمطلب . وكتبوا كتاباً تعهدوا فيه ألا يتزوجوا منهم ولا يُزوّجوهم . ولا يبيعوهم شيئاً . ولا يبتاعوا منهم . وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة . وعندما فعلت قريش ذلك انحاز بنو هاشم وبنو عبدالمطلب إلى أبي طالب ودخلوا معه في شعبه وخرج عن بني هاشم أبو لهب.

الحصار الاقتصادي لبني هاشم

وقامت قريش بمحاصرة بني هاشم . ومنعوا عنهم الطعام وأحكموا الحصار عليهم . حتى جاعت أطفالهم وأكلوا أوراق الشجر . وفي ظل هذا الحصار الرهيب أخبر رسول الله ﷺ أن الله قد سلّط الأرضة «السوس» على الصحيفة التي كتبتها قريش فأكلتها ولم يبق منها إلا كلمة «باسمك اللهم». فسأله أبو طالب من أخبرك بهذا ؟ فردّ رسول الله ﷺ أنه وحْيٌ من السماء.

وذهب عبد المطلب إلى كفار قريش وأخبرهم بما أخبره به

رسول الله ﷺ فقالوا : إن كان هذا صحيحاً فسننهي الحصار.. وفتحوا باب الكعبة.. ودخلوا ليروا الصحيفة ، فوجدوا أن الأرضة قد أكلتها فيما عدا كلمة «باسمك اللهم».

وهكذا فشلت المرحلة الثالثة ، وهي حرب التجويع التي شنها الكفار على رسول الله ﷺ والمسلمين. كما فشلت من قبل سياسة الإغراء بالمال وجاه الدنيا وسياسة التعذيب.. ولم يكن أمام كفار قريش إلا حل واحد هو أن يتآمروا على قتل رسول الله ﷺ.. ويضعوا الخطة لذلك دون أن يتعرضوا لانتقام بني هاشم وكانت المؤامرة التي تمت في ليلة الهجرة.

وشاءت الأقدار أن تموت خديجة. ويموت عبدالمطلب في عام واحد سُمّي عام الحزن. وهكذا فقد رسول الله ﷺ الحماية التي كان يوفرها له عمه أبو طالب الذي رفض أن يتخلى عن رسول الله ﷺ ، لأنه ابن أخيه الذي توفي وتركه يتيماً. وكان يعتبره كابنه. وتوفيت خديجة الزوجة الحنون التي كانت تُسرّي عن رسول الله ﷺ. وبموتهما ـ فقد حماية الداخل بموت خديجة وحماية الخارج بموت عمه ولكنه لم يفقد حماية الذي ما ودعه وما قلاه وجعل أخرته خيراً له من أولاه.

فقد كان الرسول ﷺ كلما عاد إلى بيته يملؤه الهم والحزن ، مما يلاقيه من إيذاء واضطهاد كفار قريش وتعذيبهم للمسلمين.. كانت تُطيّب خاطره وتذهب عنه الحزن. وتظل تحدثه حتى تصفو نفسه. ويصبح مستعداً ليوم جديد من الدعوة والجهاد.. بموت خديجة وعبدالمطلب ازداد اضطهاد الكفار لرسول الله ﷺ والمؤمنين.

ويضيق الرسول الكريم بإيذاء كفار قريش. فقد كان أبو طالب يحميه من أذى الكفار.. وكان يخرج معه دائماً ليمنع عنه الأذى.

إلى الطائف

وضاق رسول الله ﷺ بما يحدث له في مكة . فقرر أن يخرج بدعوته من مكة علّه يجد النصير . فذهب إلى الطائف ليدعو أهلها إلى الإسلام . وكان يعتقد أنهم سيستجيبون له . ولكن أهل الطائف بدلاً من أن يستجيبوا له سلطوا عليه صبيانهم وسفهاءهم فآذوه وقذفوه بالحجارة حتى دميتْ قدماه الشريفتان . ولجأ رسول الله ﷺ إلى بستان وجلس يعد أن أخذ بأسباب الأرض . وبعد أن فعل كل ما في طاقته لينشر دين الله ويؤدي رسالته . حتى بعد أن تخلت عنه أسباب الأرض واتجه إلى الله المنعم المسبِّب . ورفع يديه الشريفتين إلى السماء . وقال :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتي . وقلة حيلتي ، وهواني على الناس يا أرحم الراحمين . أنت ربُّ المستضعفين ، وأنت ربي إلى مَنْ تكلني ؟ إلى بعيد يتجهَّمني ؟ أم إلى عدو ملّكته أمري ؟ إنْ لم يكنْ بك غضب عليَّ فلا أبالي . ولكن عافيتك أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقتْ له الظلمات وصلُح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تُنزل بي غضبك . أو يحلّ عليَّ سخطك . لك العُتْبى حتى ترضى . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم »(١) .

(١) أورده ابن هشام في السيرة النبوية ([illegible]) وعزاه لابن إسحاق من رواية محمد ابن كعب القرظي

السماء لا تتخلى عن النبي ﷺ

دعاء فيه كل مقوّمات الإيمان واليقين. لأن رسول الله ﷺ لا يمسكه الله أبداً. ولكنه وقد استنفد أسباب الأرض اتجه إلى السماء. واهتزت أبواب السماء لرسول الله ﷺ.. وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يُعلّم رسوله أنه إذا كان قد لقي ما لقي من أهل الأرض. فإن ذلك لا يعني أن السماء قد تخلّت عنه.

وإذا كان الله جلّ جلاله قد ترك رسول الله ﷺ للأسباب أولاً.. ليجتهد فيها حتى يكون أسوة لأمته في الأخذ بأسباب الأرض مع مدد السماء. فإن الله أراد أن يكرمه ويريه من أسرار كونه ما لم يره بشر.. رسول الله ﷺ لم يفقد في يوم من الأيام نُصرة الله له ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يربي من أمة رسول الله ﷺ أولئك الذين سيحملون رسالته إلى الدنيا كلها.. وبقدر ما كانت مهمتهم عظيمة كان الإعداد عظيماً. حتى إذا فُتحت لهم الأرض بكنوزها وزينتها وقصورها.. لا تستطيع أن تفتنهم عن منهج الله ولا يدخل حب الدنيا في قلوبهم أبداً. فإن حب الله وحب الدنيا لا يجتمعان في قلب واحد

وهكذا كانت فترة الإعداد الإيماني. وعندما رفع رسول الله ﷺ يديه إلى السماء داعياً ربه. كانت معجزة الإسراء والمعراج

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى
الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ
هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)﴾

[الإسراء]

الفصل
الخامس

وجاء محمدُ السماء ؟

رسول الله ﷺ بعد أن رفع يديه إلى السماء ودعا.. عاد مرة أخرى إلى مكة ليواصل جهاده ودعوته في قسى الظروف التى مرّ بها المسلمون الأوائل . ولكن السماء كانت تعد إعداداً آخر لرسول الله ﷺ.

الله سبحانه وتعالى اراد ان يُرى رسوله الكريم ما لم يَرَهُ بشر من قبل. أراد أن يعرف الرسول أسرار عالم الملكوت الأعلى وعالم عالم الملك وعالم الملكوت عالم الملك نشترك فيه جميعاً وهو ظاهر الحياة الدنيا. أما عالم الملكوت فهو ملك يختصه الله سبحانه وتعالى لمن أراد من خلقه.. ويرى كل منهم ما شاء حسب قدره عند الله.. وقدر رسول الله ﷺ كان فوق البشر جميعاً.

ولذلك أراه ما لم يُرِ أحداً من خلقه. وكان هذا تثبيتاً . وكان هذا تكريماً .. وكان هذا تعظيماً للرسول الكريم.

كانت معجزة الإسراء والمعراج معجزة كبرى خرقت نواميس الكون.. فالله خلق كونه ليعمل بالأسباب والمسبّبات ، وهو خالق الاسباب وخالق المسبّبات وكان من الممكن ان ينصر الله دينه بدون أسباب البشر.. كما حمى بيته من جيش ابرهة.. بدون اسباب البشر

ولكن الرسالة التي تمتد الي يوم القيامة لا بد لها من رجال وهؤلاء بدون الوحي لابد ان يلجأوا لاسباب البشر لانهم لو خرجوا عن هذه الاسباب ما كان هناك جهاد. وما كان هناك ابتلاء. وما كان هناك تمحيص وما كان هناك استحقاق لنعيم الجنة في الأخرة.

فما بال الدين سيمضي بقوة السماء ، فما هو دور البشر؟ وما هو حسابهم في الآخرة؟. إن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) ﴾ [آل عمران]

ورسول الله ﷺ قدوة لأمته . ولو أنه انتصر بلا أسباب لقال المسلمون وقد أمروا بأن يتبعوا منهج الرسول.. لا طاقة لنا بهذا المنهج. فقد كان كل شيء فيه بلا أسباب . لذلك كما شاء الله أن يكون الرسول بشراً ليكون قدوة . كذلك شاء أن ينتصر ربنه ظاهرياً بالأسباب . حتى لا يترك المسلمون أسباب الدنيا لغيرهم.

التـــوكل والتـــواكل

وهنا نقف وقفة. ما معنى التوكل على الله ؟. وما الفرق بينه وبين التواكل؟ الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نتوكل عليه . ولكن التوكل عمل القلب. وليس عمل الجوارح. لذلك فإن علينا أن نأخذ بالأسباب ثم نلجأ إلى الله فيما هو فوق قدرة البشر.. فالطالب لابد أن يذاكر حتى ينجح.. وليس من الإسلام أن يدخل الامتحان بدون أن يذاكر ثم يقول إنه متوكل على الله. والإنسان مُطالب بأن يعمل ويبذل أقصى جهده . ثم بعد ذلك يأتي مدد السماء . فكم من إنسان سعى سعيًا حثيثاً إلى الرزق . ولم يُصبه منه شيء وإنسان آخر سعى نفس السعي وجاءه رزق وفير.

كلٌّ أخذ بالأسباب . ولكن النتيجة مختلفة : لأن مدد السماء كان مع واحد ، ولم يكن مع الآخر.. وكل الرسل أخذوا بأسباب الأرض في دعوتهم : لأنهم قدوة سيتبعهم المؤمنون. فكان لابد من

بشرية المتصرف لتستقيم أمور الدين . ولكن المعجزات جاءت من الله لتثبيت الرسول وتثبيت المؤمنين به في قمة الأزمات الدنيوية. فالرسول لأنه مُرسَل من الله . لابُدَّ أن تكون له معجزات تثبت صدق بلاغه عن الله.. والرسول لأنه مبلغ منهج حق نزل حين عَمَّ الفساد الأرض يواجه بموجة علنية من المقاومة.. موجة شرسة من أولئك الذين يملكون القوة والنفوذ والسلطان.

وإذا قرأت قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤) ﴾ (البقرة)

لعرفت الحكمة من الأخذ بالأسباب في الدنيا ، وأنها الطريق إلى الجنة أو النار.

الحكمة من الإسراء والمعراج

وإذا أردنا أن نتحدث عن معجزة الإسراء والمعراج فإننا نبدأ بالآية الكريمة التي جاءت في بدء سورة الإسراء. يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١) ﴾ [الإسراء]

هذا النصُّ القرآني بدأه الله سبحانه وتعالى بقوله ﴿ سُبْحَانَ ﴾. ومعنى كلمة سبحان أنها تنزيه للحدث من أيِّ شبهة مقارنة لأية قوة بشرية.

والله سبحانه وتعالى مُنزّه في ذاته.. وفي صفاته وأفعاله.. عن قوانين الدنيا كلها.. ولذلك فإن أي فعل ينسب من الله وتقف فيه العقول نقول (سبحان الله).. أي أنه فوق قوانين البشرية كلها، لذلك فإن أول ما يصل إلى الأذن في سورة الإسراء هو قول الحق ﴿سبحان﴾. أي أن هذا الفعل لا يخضع لقوانين البشر.. ولكنه يخضع لقدرة الله سبحانه وتعالى.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى .. ①﴾ [الإسراء]

والله جلّ جلاله هو الذي أسرى.. ومحمد ﷺ هو الذي أُسري به.. ثم بعد ذلك يقول الحق: ﴿بعبده﴾ [الإسراء] وهو رسول الله.

ثم تأتي بعد ذلك بداية الإسراء ونهايته في قوله تعالى: ﴿من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصا.. ①﴾ [الإسراء] ثم السبب في الإسراء في قوله سبحانه ﴿لنريه من آياتنا.. ①﴾ [الإسراء] أي: أن الله أراد أن يُري رسوله ﷺ من آياته.. وآيات الله أكثر من أن تكون لها بداية أو نهاية.

لا وجه للمقارنة

إذا جئنا للفعل وهو الإسراء.. فلابد أن ننسبه إلى فاعله.. وهو الله سبحانه وتعالى.. فالفعل لم يقع من رسول الله ﷺ وإنما حدث من الله.. ولم يقُل رسول الله: أنا سريت حتى ينسب الفعل إلى قانون بشرية الرسول عليه الصلاة والسلام.. كما قال الكفار: نحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً.. وتدّعي أنك أتيتها في ليلة.. لقد كانت الرحلة من مكة إلى بيت المقدس تستغرق شهرين في ذلك الوقت.

إذن .. وجه المقارنة هنا معدوم.. ومقارنة الكفار بالإسراء بالنسبة لقوتهم البشرية هي مقارنة تدل على الغباء. لأن محمداً ﷺ لم يقل إني سريت ولكن قال أُسري بي.. إذن : فرسول الله عليه الصلاة والسلام محمول على نطاق قوة أخرى، فلا حدود ولا قيود.

وإذا أردنا لذلك مثلاً يُقرِّب ذلك من الأذهان.. نقول : إذا قلت لقد صعدتُ بابني الرضيع في قمة أعلى جبل في العالم. لا يمكن أن يقول أحد. كيف يصعد طفل رضيع قمة أعلى جبل في العالم.. وإنما قد يتساءلون كيف صعدت أنا ؟ .. لأن الصعود ليس منسوباً لقوة الرضيع. وإنما هو منسوب لي.

والزمن دائماً يُنسب إلى قوة الفاعل. فإذا سافرت ماشياً نسب الزمن إلى قوة قدميك. فإذا كنت في سيارة يكون الزمن أقلّ ، لأن السيارة أقوى من القدمين وأسرع.. وإذا كنت في صاروخ كان الزمن أقل لأن قوة الصاروخ أكبر . فإذا نسب الفعل إلى الله سبحانه وتعالى فلا زمن لأنه الله.

رحلة بالروح والجسد

قد يأتي إنسان ويقول.. إذا كان الفعل من الله بلا زمن. فلماذا استغرق الإسراء ليلة ؟

نقول : هناك فرْق بين حدث الإسراء في ذاته.. وبين مَرائي تعرّض لها رسول الله ﷺ.. فالرسول حين تعرض لمرائي في الإسراء هذه هي التي احتاجت الزمن لأنه رآها ببشريته. أما الرحلة ذاتها فلم تحتج إلى زمن.

ولكن الأسئلة لا تنتهي حتى في عصرنا الحديث الذي أعطى فيه الله سبحانه وتعالى عباده من العلم البشري.. ومكنهم من قوانين الأرض.. فاخترعوا وسائل المواصلات تختصر الزمن.

والسؤال هنا.. كم من الزمن تستغرق رحلة الصاروخ من مكة إلى بيت المقدس؟ دقائق أو أقل.. وإذا كان هذا هو الذي وصلت إليه قدرات البشر بما كشف الله لهم من علمه.. فكيف بقدرات الله؟!

إذن.. فالحديث عن الزمن لا محل له. ولكن بعض الناس يتساءلون.. هل تم الإسراء بالروح فقط؟ أم بالروح والجسد؟.. نقول.. لو أنه تم كرؤيا منام لما قال الكفار: أتدعي أنك أتيتها في ليلة.. ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهرا.. لأن المنام أو الرؤيا في النوم لا تناقش مع من رآها.. فلو قال لك إنسان: إنني رأيت في منامي أنني ذهبت إلى لندن ثم إلى أمريكا.. ثم إلى استراليا.. فإنك لا تناقشه.

ولذلك لو كان الإسراء مناما.. ما ناقش أحد رسول الله ﷺ ولكنهم عرفوا أن رسول الله عليه الصلاة والسلام يتحدث عن رحلة تمت في اليقظة وليست في المنام.. وتمت بالجسد والروح معا.. ولكن العقول التي تبحث في القرآن لتوجد تضاربا وعجبا بين ما قاله رسول الله ﷺ تدعي أن القرآن نفسه قد قال إنها رؤيا منامية.. وذلك في قوله تعالى.

﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس .. (٦٠) ﴾ [الإسراء]

وكلمة الرؤيا بالألف لا تأتي إلا للمنام.. لأن الرؤية البصرية

قالوا فيها رؤية . ونحن نقول : إذا كانت رؤيا منام فكيف تكون فتنة للناس؟ بعضهم يُصدِّق وبعضهم يُكذِّب. إن المنام لا يناقشه أحد تكذيباً او تصديقاً. وإذا عُدنا للغة العربية نجد ان كلمة رؤيا وردت للرؤية البصرية.. فالراعي النميري أعرابي، وهو شاعر عربي قال .

فكبَّرَ للرُّؤْيَا وهشَّ فُؤادُه ... وبشَّر نفساً كان قبْلُ يلُومها

والمتنبي يقول . ورؤياك في العينين أحلى من الغمض.. .

إذن فالرؤيا في اللغة تُستخدم بمعنى انها بالبصر . وبمعنى انها بالمنام . واكثر استخدامها بالنسبة للبصر يتم عادة في الأشياء الغريبة التي رأيتها بعينيك وأنت تتعجب منها، وكأنها لا يمكن انْ تُدرك إلا في الاحلام.

وما دامت رؤيا رسول الله ﷺ قد جُعلت فتنة. فلا يمكن أن تكون مناماً. إذن فرسول الله ﷺ أسري به بالجسد والروح معاً . نلاحظ في الآية الكريمة .

﴿سُبْحانَ الذي أسرى . . (١)﴾ [الإسراء]

ولم يقُلْ برسوله او بنبيه. بل أتى بصفة العبودية لله سبحانه وتعالى. لأن كل الديانات جاءت لتصحح عبوديتنا لله سبحانه وتعالى.. ولابد أن يكون الرسول قدوة في العبودية. وهذه الكلمة جاءت أيضاً حتى يمكن الرد على الذين يقولون ان رسول الله ﷺ أسري به روحاً أو مناماً.. فإن كلمة العبد لا تطلق إلا على الروح والجسد معاً.

وبداية الإسراء ونهايته من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.

أي: أن الإسراء بها من أول بيت وُضع للناس في الأرض إلى المسجد الأقصى، وهو مشهد مقدس من مشاهد الله في الأرض.

وهنا يبرز اعتراض آخر: كيف يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا..﴾(١) [الإسراء] مع أن المسجد هو للمسلمين فقط.. ولم يكن المسلمون قد دخلوا بيت المقدس بعد؟

نقول: إن كلمة مسجد تطلق على مكان السجود.. فكل مكان يسجد فيه الإنسان لله الواحد الأحد هو مسجد.. والسجود لم يأت مع الإسلام. وإنما كان في كل الأديان. فكل مكان يُسجد فيه لله سبحانه وتعالى يكون مسجداً. وبيت المقدس له قدسية مع موسى وعيسى عليهما السلام.

ورسول الله ﷺ لم يُبعث لقومه فقط.. ولكنه بُعث للناس كافة.. وإسراؤه إلى بيت المقدس كأنه أدخل بيت المقدس في مقدسات دينية. وهذا يوضح أن الإسلام مُهيمن على كل المقدسات في الأرض.. ورسول الله ﷺ يقول:

«لا تُشدُّ الرِّحال إلا إلى ثلاث: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي هذا»(١)

وصف بيت المقدس

حين روى رسول الله ﷺ قصة الإسراء. أراد الكفار أن يحرجوه فقالوا: صِفْ لنا المسجد الأقصى. وهم يعلمون أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يذهب من قبل إلى هذا المكان.. فوصفه لهم وصفاً دقيقاً. ولقد وصفتُ أحداث في الطريق بين مكة

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٣٩٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه

والمسجد الأقصى.. ورواها لهم رسول الله ﷺ. مثل القافلة التي قال عليه الصلاة والسلام: إن أحد جمالها قد ضلّ.. وإنها ستصل وقت كذا

والقرآن الكريم حين تعرَّض للإسراء. تعرَّض له بمقدمات مادية أرضية كالأحداث التي رآها رسول الله ﷺ في الطريق.. ووصفه المسجد الأقصى إلى غير ذلك.. وكانت هذه الأشياء المادية مقدمة للمعراج. حتى إذا تأكد الناس أن الله سبحانه وتعالى قد خرق لرسوله قانون المسافة فيما نعلم. فإنه قادر على أن يخرق له قانون العلو أيضا فيما لا نعلم. عندما عرج برسول الله ﷺ إلى سدرة المنتهى..

والقرآن حين تعرَّض لحديث الإسراء تعرَّض له صراحة.. وعندما تحدث عن المعراج تعرض له كما يقولون التزاماً.. والله سبحانه وتعالى لم يقلْ سبحان الذي عرج بعبده من بيت المقدس إلى سدرة المنتهى.. وإنما قال جل جلاله

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨)﴾ [النجم]

وذكْر سدرة المنتهى والوقوف عندها ورؤية آيات ربه الكبرى

يجب أن نعلم معها أن رسول الله ﷺ صعد إلى سدرة المنتهى. ولكن لماذا لم يأت بها الله سبحانه وتعالى نصاً؟.. نقول: إن هذا اختبار للطبق الإيماني في النفس البشرية، فما دمت مؤمناً بأن رسول الله ﷺ قد خرق له قانون المسافة، فإنك تؤمن أنه خُرقت له قوانين الصعود إلى السماء.

ولماذا نريد أن نقيس معجزة حدثت لرسول الله ﷺ بعقولنا. بينما كل معجزات الأنبياء كانت فوق قدرات العقول.. فإلقاء إبراهيم في النار ثم تكون النار برْداً وسلاماً عليه معجزة لا يستطيع أن يدركها العقل. لأن خاصية النار هي الإحراق. وانشقاق البحر لموسى عليه السلام معجزة لا يمكن أن يدركها العقل، لأن خاصية الماء الاستطراق. وإحياء الموتى وشفاء الناس بمجرد اللمس معجزة لعيسى عليه السلام لا تخضع لقوانين العقل.

فلماذا كل هذه المعجزات نسبها إلى قدرة الله سبحانه وتعالى. ثم نأتي إلى معجزة الإسراء والمعراج ونناقشها عقلاً. ومعجزات الله كلها فوق قدرة العقل. ولذلك فإن الذي يُكذّب بالإسراء يكون كافراً؛ لأنه صادم النصَّ القرآني.. والذي يُكذّب بالمعراج يكون كافراً فاسقاً لأن المعراج بدلالة الالتزام.

الكفار تأكدوا من صدق الرسول ﷺ

وما دام محمد ﷺ محمولاً بقانون الحق سبحانه وتعالى.. فإن كل شيء يحدث مُصدق لأنه بقدرة الله.. فكان الإسراء جاء آية أرضية؛ لأن البشر يعلمون بيت المقدس والمسجد الأقصى ومنهم مَنْ ذهب إلى هناك، ومنهم مَنْ يعرف الطريق. وقد أخبرهم

رسول الله ﷺ بالقافلة التي كانت في الطريق . وانتظروا القافلة . وتأكدوا من صدق كلامه.

إذن فقد قام الدليل الأرضي على صحة الإسراء.. وتأكد من أراد التأكد. وكان ذلك مقدمة للتصديق بأن الله سبحانه وتعالى الذي خرق لرسول الله ﷺ قانون المسافة والزمن في الإسراء . خرق له قانون السموات السبع في المعراج . لأنه لا يمكن لأحد أن نقيم له الدليل الأرضي على معجزة المعراج لأن أحداً من البشر لم يصعد إلى السموات السبع

على أننا يجب أن نلاحظ أن القرآن الكريم قال

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا . . ١ ﴾ [الإسراء]

فنالى الفصل هنا إرادة ما هي الإرادة؟ هي أن تجعل من لا يرى يرى. وأبسط مثل يمكن أن يضرب لهذه المسألة هو أن الإنسان الضعيف النظر عندما يذهب إلى طبيب العيون يفحص بصره . وأنه لا يرى الأشياء التي تدخل هذه منطقة إبصار يضع الطبيب على عينيه نظارة فيرى ما لم يكن يراه وعدم الرؤية هنا ليس دليلاً على عدم وجود شيء. ولكنه دليل على عدم إدراك هذا الشيء.

فالميكروبات مثلاً موجودة في الكون تؤدي مهمتها منذ خلق الله الأرض ولكننا لم ندرك وجودها إلا حديثاً إذن فالإرادة إما أن تكون بتغيير قانون الرائي وإما بإعطائه شيئاً ليرى بذاته والإسراء كان على الأرض بقانون البشرية لمحمد ﷺ.. وقانون الإبصار خاضع للضوء.

فإذا كانت هناك أشياء من غيب الله في الأرض .. فلابد أن يحدث لرسول الله ﷺ ما يجعله يرى.. لأنه بطبيعته البشرية لا يرى هذه الأشياء.

ولكن حينما ينتقل رسول الله ﷺ إلى الملأ الأعلى ويلتقي بالأنبياء الذين ماتوا قبله ويلتقي بالملائكة ويتحدث معهم .. فلابد أن الحق سبحانه وتعالى قد غيّر من بشرية رسول الله ﷺ إلى الملائكية

ولذلك عندما صعد إلى السماء قال الله سبحانه وتعالى:

﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى (١٨)﴾ [النجم]

ولم يقُل أرناه فكان رسول الله ﷺ قد أخذ وضعاً آخر في السماء فأصبح بذاته يرى.. ولذلك فإن الملائكية أصبحت هي المسيطرة على الرسول الكريم فكأن المسألة تمت على ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: كان بشراً وجبريل عليه السلام يعرض عليه الأشياء. فيقول: ما هذا يا جبريل؟

فيقول كذا وكذا

والمرحلة الثانية: حين صعد إلى السماء.. كانت له ناحية مختلفة تماماً. بحيث أصبح يرى بنفسه ويرى الملائكة ويتكلم معهم ويخاطبهم.

والمرحلة الثالثة: أن رسول الله ﷺ ارتقى ليصبح أعلى من أقرب الملائكة إلى الله وهو جبريل عليه السلام.. لأنه حين طلب

من جبريل أن يتقدمه إلى سدرة المنتهى قال جبريل: هنا مكاني. لو تقدمت لاحترقت. وأنت لو تقدمت لاخترقت.

إذن.. فقد وصل رسول الله ﷺ إلى درجة لا تتحملها ملائكة جبريل عليه السلام.. فأصبح هو وحده الذي يستطيع أن يتقدم ويخترق.. أما ملائكة جبريل عليه السلام فلم تَكُنْ تتحمل التقدم ولا تحتمله؛ لأنه كان سيحترق.

رؤية الآية الكبرى

وقال الحق سبحانه وتعالى:

﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٨)﴾ [النجم]

إخبار من الحق وليس إخبارًا من محمد عليه الصلاة والسلام. ومعناه أنه رأى الآية الكبرى من آيات ربه.. وما دام قد رأى الآية الكبرى فلابد أنه رأى قبلها آيات وآيات.. ومعنى أنه رأى من آيات ربه الكبرى.. أنه رأى الكبرى من آيات ربه.. فكان الكبرى هي المفعول وليست وصف الآيات.. فكان السياق يقول:

﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ.. (١٨)﴾ [النجم]

ماذا رأى؟.. رأى الكبرى.. أي الآية الكبرى.. ولقد كان جبريل عليه السلام معه في الأرض ومعه في السماء.. ولكن الآية الكبرى التي لم يقدر عليها جبريل ولا أحد من الملائكة قد انفرد برؤيتها رسول الله ﷺ.

ورسول الله ﷺ رأى في المعراج أشياء كثيرة. أول شيء يعرضه لنا رسول الله عليه الصلاة والسلام مسألة الفطرة.. فقد عُرض على رسول الله ﷺ كأس من اللبن وكأس من الخمر

فاختار عليه الصلاة والسلام كأس اللبن.. فقال له جبريل : هُديتَ إلى الفطرة

ما معنى هُديتَ إلى الفطرة ؟. الفطرة بطبيعتها نقية . لأن اللبن الذي نشربه من أمهاتنا واللبن الذي نشربه من البقر والجاموس وغيرهما . نشربه كما خلقه الله.. أي لا صنعة للإنسان فيه.

والإنسان حتى الآن وإلى يوم القيامة لن يستطيع أن يصنع اللبن لأنه معجزة من معجزات الله. واللبن الصناعي الذي يتحدثون عنه إنما هو لبن طبيعي . ولكن تم تبخير الماء فيه ليبقى فترة طويلة على شكل مسحوق . محتفظاً بكل خواص اللبن الطبيعي وقد يضيفون إليه أشياء كالفيتامينات وغيرها. ولكن يبقى مصدره اللبن الطبيعي. ذلك أنه من المستحيل تصنيع اللبن . أما الخمر فقد أجريتْ عليها تغييرات ودخلت فيها صناعة البشر.. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرًا . (٦٧) ﴾ [النحل]

أي يصنعون منها ما يسكر. ويقول الحق : ﴿ ورزقًا حسنًا .. (٦٧) ﴾ [النحل] أي من يأكل هذه الأشياء على طبيعتها فهذا رزق حسن . ومن يصنع منها خمراً فإنه رزق غير حسن

ونحن نأخذ نعم الله التي يعطيها لنا بالفطرة حسنة ونفسدها بأن نضعها في برميل حتى تتعفن وتتخمر ، ونخرج عن طبيعتها وفطرتها لتصبح رزقاً غير حسن . فكأننا أخرجنا الشيء عن طبيعته وعن فطرته فأذهبنا حُسْنه

والخمر تستر العقل . والعقل هو مناط التكليف من الله سبحانه

وتعالى.. والمجنون لا يكلفه الله.. فكأن الخمر تعطل آلة الاختيار بين البديلات.. وفي الاختيار لابد أن يكون العقل موجوداً وسليماً حتى تستطيع أن تميز بين الخير والشر.. فكأن الإنسان يأتي إلى مناط التكليف من الله سبحانه وتعالى ليفسده بالخمر.. فكأنه عمد إلى النعمة الكبرى التي تقوم بتكليف التنفيذ من الله ليعطلها.. وكأنما جبريل أراد أن يقول إن الفطرة بطبيعتها سليمة فلا تفسدوها بتصرفاتكم

مشاهد من الثواب والعقاب

وبعد ذلك روى رسول الله ﷺ مشهداً آخر رأى قوماً يزرعون ويحصدون في نفس الوقت فقال لجبريل من هؤلاء؟ قال جبريل المجاهدون في سبيل الله سبحانه وتعالى.. لأن الجهاد في سبيل الله هو الوسيلة الناقلة لهدى الله سبحانه وتعالى إلى خلقه. فلابد لهؤلاء المجاهدين الذين يجودون بأموالهم وأرواحهم أن يعطيهم الله من الجزاء أضعاف أضعاف ما يقدمونه.

أي يعطيهم جزاء يناسب قدرته سبحانه وتعالى في العطاء ويحصدون ثمرات ما عملوا مرات ومرات وإذا كانت حبة القمح في الأرض تعطي مئات من حبوب القمح. إذا كان هو عطاء مخلوق من مخلوقات الله وهي الأرض.. فكيف يكون عطاء الله سبحانه وتعالى؟

ثم يروي لنا رسول الله ﷺ. أنه رأى امرأة عجوزاً عليها كل زينة.. فسأل رسول الله ﷺ: ما هذا يا جبريل؟.. قال إنها الدنيا التي حفت بالشهوات لتخفي قبحها وإذا كانت الدنيا عجوزاً فمعنى ذلك أنه لم يبق من عمرها الكثير.

ولذلك قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين»[1] وأشار بإصبعيه.. والإنسان في الدنيا عمره محدود.. ولذلك يجب أن ننتبه إلى هذه الحقيقة.. وهي أنه لا علاقة لنا بالدنيا إلا بقدر حياتنا فيها.

ويرى رسول الله ﷺ أناساً والمقص يقص شفاههم وألسنتهم

قال: «من هؤلاء يا جبريل؟».. قال جبريل: خطباء الفتنة الذين يقولون ما لا يفعلون، يقولون كلاماً يسمعه الناس، ويخالفون بفعلهم ما يقولونه.. فتكون النتيجة أن ينقلب الناس على منهج الله لأن الدين قدوة.. وإذا كان هناك كلام يقال ويُعمل ضده من الدعاة إلى الله انهدمت قضية الدين.. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣)﴾ [الصف]

ثم يروي رسول الله ﷺ أنه رأى قوماً يسبحون في بحر من دم ويلقمون الحجارة بأفواههم.. فسأل عنهم جبريل.. فقال: هؤلاء أكلة الربا.. والدم حين يكون في الجسد يكون نافعاً.. وحين يخرج من الجسد يكون فاسداً.. فكان هؤلاء هم الذين أخرجوا المال من وظيفته النافعة في الحياة ليفسدوه بالربا.. وقد استبدلوا بالغذاء النافع للإنسان لقم الحجر.

وهنا معنى الربا أن تتخذ من المال وسيلة ليزداد الفقير فقراً

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه (٦٥٠٣) ومسلم في صحيحه (٢٩٥٠) من حديث سهل بن سعد.

ويزداد الغني غنى.. وبذلك تفسد وظيفة المال.. لأن المال خلقه الله في الدنيا ليستخدم في عمارة الأرض.. ولذلك يجب أن تستثمره لنفتح أبواب العمل للناس.. وأن نتصدق بجزء منه لنعين الفقير والمحتاج.. ولكن الربا بدلاً من أن يجعل الدم يجري في العروق ليعطيها القدرة على العمل والإنتاج وعمارة الأرض يسلبها هذه القدرة.. وكان المرابين يأكلون الحجارة لأن في بطونهم النار.. والنار وقودها الحجارة

انشغال الناس بشيئين

والناس في الدنيا مشغولون بشيئين.. المال يجمعونه وأعراض الناس يعتدون عليها.. إذن.. فالمال والعرض هما أساس الفساد في الأرض.. ورسول الله ﷺ رأى مسألة المال في أكلة الربا.. ثم رأى مسألة العرض في أكثر من صورة.. قوم لهم أظافر من نحاس يخدشون بها وجوههم.. فسأل عنهم جبريل.. فقال له جبريل: هم الذين يغتابون الناس.. ورآهم في صورة أخرى.. أناس يتركون اللحم الطيب أمامهم ويأكلون اللحم النتن.. وسأل جبريل عنهم فقال جبريل: هؤلاء هم الزناة.. الرجل تكون عنده المرأة في الحلال فيتركها ويذهب إلى المرأة في الحرام.. والمرأة يكون عندها الرجل في الحلال لتذهب إلى الرجل في الحرام

ورأى رسول الله ﷺ مشهداً آخر ثوراً عظيماً خرج من جُحْر ويحاول أن يدخل فيه فلا يستطيع.. وسأل رسول الله ﷺ جبريل.. فقال: هذا الرجل يقول الكلمة يخطئ العهد.. ثم يحاول أن يرجع فيها فلا يستطيع.

ورأى عليه الصلاة والسلام رجلاً يحمل حملاً لا يقدر عليه.. ثم يمد يده إلى شيء آخر ليزيد حمله.. وقال جبريل: هؤلاء هم الذين يحملون الأمانات ويعجزون عن أدائها، ومع ذلك يحبون أن يزيدوا ظهورهم حملاً بقبول أمانات جديدة.

ويروي رسول الله ﷺ أنه رأى قوماً يرضخون رؤوسهم بالحجارة، وكلما رُضخت عادت كما كانت.. أي: أنهم يضربون رؤوسهم بالحجارة فتتحطم ثم تُرد مرة أخرى فيضربونها.. وهكذا دون أن تفتر هذه العملية أو تنتهي. فقال رسول الله ﷺ: مَنْ هؤلاء يا جبريل؟. قال جبريل: هؤلاء هم الذين يتكاسلون عن الصلاة.. وهؤلاء يضربون رؤوسهم؛ لأن رأس الإنسان هو الذي يُسوِّل له أن يتكاسل عن الصلاة.

وقد يُقال: إن الصلاة لم تكن قد فُرضت بعد.. فكل هذه المشاهد حدثت ورسول الله ﷺ في طريقه إلى سدرة المنتهى. نقول: إن الصلاة قد فُرضت مع كل رسول.. وعلى أتباع كل رسول.

والله سبحانه وتعالى يقول لإبراهيم وهو يقيم القواعد من البيت:

﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) ﴾ [الحج]

إذن فهناك رُكَّع.. وهناك ساجدون.. وإبراهيم عليه السلام حين يدعو ربه بعد أن أخذ هاجر وابنهما إسماعيل إلى مكان البيت يقول

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ .. (٣٧)﴾ [إبراهيم]

فكأنه كانت هناك صلاة. والله يقول لمريم عليها السلام

﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)﴾

[آل عمران]

فكان هناك ركوع وسجود وصلاة.. ولكنها ليست كالصلاة الإسلامية. فالصلاة في الإسلام جمعت مميزات كل صلوات الرسل. وصلوات الرسل كانت في بعض الأزمنة ركعتين في أول النهار. وركعتين في آخره.. ولم يفرض على أتباع رسول سابق هذه الصلوات التي فرضت على أمة محمد عليه الصلاة والسلام

كيف صلى النبي بالرسل عليهم الصلاة والسلام؟

على سؤال واحد سنتحدث عنه قبل أن نختم الحديث عن الإسراء والمعراج. رسول الله ﷺ قبل أن يبدأ المعراج صلى إماماً بالرسل السابقين.. فكيف يحدث ذلك وهو حي وهم أموات؟

نقول : وماذا في ذلك ؟.. إن الله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء.. والله الذي جعل عيسى بن مريم يُحيي الموتى بإذنه.. ألا يقدر على أن يعيد الحياة لرسله ليصلي بهم رسول الله ﷺ إماماً؟ كيف يعطي الحق سبحانه لعبد من عباده القدرة على إحياء الموتى بإذنه.. ولا يحتفظ لنفسه بهذا الحق متى شاء وكيف شاء.

عندما روى رسول الله ﷺ ما حدث له في الإسراء والمعراج صدَّقه البعض وكذَّبه البعض . وعندما ذهب عدد من الناس إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وأبلغوه بما قاله رسول الله ﷺ .

قال . أو قال هذا؟.. قالوا . نعم. قال أبو بكر: إذن لقد صدق . فلما اعترض عليه عدد من الحاضرين. قال : أنصدقه في خبر السماء. ونكذبه فيما يقول؟

ذلك أن الوحي كان ينزل على رسول الله ﷺ ، ولا يراه أحد ، ولا يسمعه أحد إلا رسول الله عليه الصلاة والسلام . وكان الرسول يبلغ المؤمنين بمنهج السماء وما نزل من القرآن.. فإذا كانوا يصدقونه فيما يبلغهم به عن الله.. فكيف لا يصدقونه فيما رواه لهم عما رأى؟

وهكذا كانت معجزة الإسراء والمعراج معجزة كبرى.. عاد رسول الله ﷺ إلى مكة ليواصل دعوته وقد كرمه الله سبحانه وتعالى في ملكوته وفي سمائه بما لم يكرم به رسولاً غيره

وبدأت الدعوة تنتشر.. ويزداد عدد المسلمين.. وتقوى شوكتهم.. ولم تقتصر دعوة رسول الله ﷺ على أهل مكة . بل كان في موسم الحج يلتقي مع وفود القبائل ويدعوهم إلى الإسلام ويتحدث معهم وأحست قريش بأن الخطر يتهددها ليس فقط في مكة . ولكن في الجزيرة العربية كلها.

﴿الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت
من لدن حكيم خبير (١)﴾

[هود]

الفصل
السادس

القرآن والإعجاز الأبدي

بدأت دعوة رسول الله ﷺ تنتشر.. وبدأ القرآن الكريم كمعجزة يأخذ القلوب والنفوس.. ويحمل منهج الحق إلى الناس.. وكل قلب كان يسمع القرآن كان يؤخذ به.. لقد نزل القرآن الكريم والدنيا تخضع للشر.. ينتفع بالشر قلة قوية وتعاني منه كثرة ضعيفة مغلوبة على أمرها. كانت هذه هي صفات المجتمع الذي نزل فيه القرآن ليبدله ويغيره

وشاء الحق سبحانه وتعالى أن تنهار قوة الشر برسالة محمد ﷺ.. أما أصحاب الخير الضعفاء فكانوا يؤمنون بمنهج الله. لأنه هو الطريق الذي يُخلِّصهم من شرِّ الأقوياء ممثلين في قريش وزعمائها . ولذلك بدأت المعركة بين الضعفاء والخير غلباً وتعذيباً واضطهاداً للمؤمنين.. وتحمل من تلك القلة المؤمنة التي كانت أول مَنْ آمن برسالة السماء

والمعركة حين تكون بين الحق والباطل فإنها لا تستغرق وقتاً طويلاً . فما من معركة قامت في الدنيا بين حق وباطل إلا انتصر فيها الحق . ولكن المعارك التي تطول بلا نهاية هي التي تكون بين باطل وباطل . والله سبحانه وتعالى ينصر الحق على الباطل ولكن إذا قامت معركة بين باطل وباطل ، فإن الله جلَّ جلاله يتركهم لأسباب الدنيا.. كُلٌّ حسب أسبابه.

رسالة الحق

رسول الله ﷺ جاء برسالة الحق. ولذلك كان لابد أن ينتصر. وما دام الرسول عليه الصلاة والسلام قد جاء بآخر بلاغ عن

الله. فلابد أن يكون هذا البلاغ شاملاً لكل معاني الخير في حياة البشر. بحيث لا يترك أيَّ معنى من هذه المعاني إلا وقد غطَّاها بما يملؤها بالخير.

وما دام رسول الله ﷺ هو آخر مُبلِّغ عن الحق جل جلاله فلابد أن تمتد المعجزة في رسالته إلى يوم القيامة.. ولذلك لم يأتِ القرآن بمعجزة لغوية فقط؛ لأن الإعجاز اللغوي تختص به العرب الذين نبغوا في اللغة. ولكنه جاء يحمل إعجازاً للكون كله

ولقد تحدى القرآن الكريم العرب في لغتهم وبلاغتهم.. فالتحدي بالنسبة لله سبحانه وتعالى لابد أن يكون من جنس ما نبغ فيه القوم الذين تنزل فيهم الرسالة. فموسى عليه السلام نبغ قومه في السحر. وكان السحرة في عهد فرعون على علم ومكانة بالنسبة لقوانين السحر.. ولذلك جاء موسى عليه السلام ليتحداهم فيما نبغوا فيه.. وكانت معجزة موسى من جنس ما نبغ فيه قومه.

وعيسى عليه السلام أُرسل إلى قوم نبغوا في الطب.. ولذلك كانت معجزة في إبراء الأكمه والأبرص، وغير ذلك من جنس ما نبغ القوم فيه

ومحمد عليه الصلاة والسلام بُعث في قوم نبغوا في اللغة وفنّ الكلام.. ولذلك كان لابد أن يأتي القرآن مُعجِزاً لهم من الناحية اللغوية. ولكن القرآن هو الكتاب الخاتم نزل على الرسول الخاتم. فكان لابد أن تكون له أكثر من معجزة.. ولذلك لقد تحدى به العرب وتحدى غير العرب.. وكشف حُجُب الغيب، واشتمل على أسرار الكون. فالله سبحانه وتعالى هو خالق الكون. وهو جل جلاله الذي يعطي العلم لخلقه

ولذلك فهو سبحانه وتعالى عالم بما سيحدث في الكون . وبما سيكشف من أسرار هذا الكون لخلقه.. ولذلك وضع في القرآن الكريم معجزة لكل عصر ، بحيث تكون المعجزة مصاحبة لمنهج القرآن حتى آخر عمر الدنيا.

وشاءت إرادة الحق أن يتنزل هذا القرآن على رسول كريم أمي لا يعرف الكتابة ولا القراءة . حتى لا يدعي أحد أن الرسول الكريم قد أخذ رسالته من مُعلّم له . ولم تؤثر فيه ﷺ ثقافة شرق أو ثقافة غرب.. وشاءت حكمة الحق سبحانه وتعالى ألا ينزل القرآن الكريم في أمة لها حضارة في ذلك العصر كالروم أو الفرس.. حتى لا يُقال : إن هذا الكتاب المعجز المنزل على رسول الله ﷺ.. هو نتيجة لرقاء حضارات البشر.

عطاء القرآن يتجدد

والقرآن لم يأت ليحطمنا أسرار الكون . وإنما جاء ليكشف هذه الأسرار حتى تتقدم الحضارات ويتسع الفهم البشري . فيكتشف من عطاء القرآن ما يتناسب مع فهم العقول في كل جيل. ولذلك فإن للقرآن عطاء متجدداً لا يتوقف أبداً إلى يوم القيامة يقول الحق:

﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) ﴾ [الكهف]

ولقد وقف الصحابة والمؤمنون الذين عاصروا رسول الله ﷺ عند عطاء القرآن وقت نزوله ما استطاعت عقولهم أن تطيقه من أسرار الكون ، ومن أسرار ألفاظ القرآن. فلم نجد صحابياً سأل رسول الله ﷺ عن آيات الكون في القرآن . أو عن عطاءات القرآن في اللغة.

ولذلك لا تجد أن صحابياً سأل عن معنى «الم» أو «حم» أو «حم، عسق» على أن رسول الله عليه الصلاة والسلام استقبل أناساً كثيرين يؤمنون بكتاب الله .. واستقبل أناساً كثيرين يكفرون بما أنزل الله .. وكان الكفار يريدون أن يقيموا الحجة على أن القرآن ليس كلام الله . ولكننا لم نسمع عن أحد من عُتاة الكفار أنه قال اللوم وهم بُلغاء فصحاء.. العربية عندهم ملكة وليست صناعة.. ما سمعنا واحداً من الكفار يقول ماذا تعني «الم» أو «حم، عسق».. وكيف يمر الكافر الكابر على فواتح السور هذه ، ولا يجد فيها ما يطعن به هذا الدين؟.

الجواب : أنه انفعل لها وإنْ لم يؤمن بها . ولم يجد فيها ما يمكن أن يستخدمه ليهدم القرآن.. فلا المؤمنون سألوا رسول الله ﷺ عنها.. ولا الكافرون الحريصون على محاربة هذا الدين والتشكيك في القرآن سألوه . ولو أنهم وجدوا شيئاً غير عادي لقالوه للناس . ولكنهم كانوا يقولون : لا تسمعوا لهذا القرآن.. ومعنى طلبهم عدم السماع للقرآن.. أنهم يعتقدون ، رغم الكافرين ، أن للقرآن أخْذاً للقلوب وأسْراً للنفوس. وحلاوة لا يمكن لمن يسمعه إلا أن يؤمن به.

ولو كان القرآن لا يعطي شيئاً من هذا ما اهتم الكفار بأن يمنعوا الناس من سماع القرآن.. ولن يقولوا . والغوا فيه.. أي . أحدثوا أصواتاً عالية عندما يقرأ أحد المؤمنين القرآن.. حتى لا يتمكن أحد من سماعه.. ولا يمكن أن يحدث هذا إلا إذا كان هؤلاء الكفار وهم أصحاب ملكة عربية يعرفون تأثير القرآن على مَنْ يسمعه.

رسول الله ﷺ وهو الذي نزل عليه القرآن.. فسَّر وبيَّن كل ما يتعلق بالتكليف، أي بافعل ولا تفعل.. ولكنه ترك كل ما يتعلق بغير التكليف للأجيال القادمة.. ذلك لأن القرآن كلام الله والكون خلْق الله. وفي الكون آيات من صنْع الله.

الله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ومن آياته الليلُ والنهارُ والشمسُ والقمرُ.. (٣٧)﴾ [فصلت]

﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت.. (٣٩)﴾ [فصلت]

إذن: فلله في كونه أسرار يسميها آيات.. ويسمي ما ينزل من القرآن آيات.. ففي الكون آيات وفي القرآن آيات.. وعدم تفسير رسول الله ﷺ لكونيات القرآن حدث؛ لأن العقول لم تكنْ تتسع لهذا التفسير.. فترك الرسول الكريم كل منْ يستطيع أن يأخذ شيئًا من كونيات القرآن أن يأخذه.. فكان المنع عين العطاء.

كلمة قرآن ساعة تسمعها تفهم أنه يقرأ.. لأن قرآن مصدر قرأ قرآنًا.. مثل غفر غفرانًا.. ولكنه بعد نزول القرآن الكريم أصبح لفظ قرآن اسمًا للكلام الموحَى به من الله سبحانه وتعالى لرسول الله ﷺ.. ويُسمِّيه الله تبارك وتعالى كتابًا.

إذن: هو قرآن وهو كتاب.. إن أخذته على أنه يقرأ فهو قرآن.. وإن أخذته على أساس أنه يكتب فهو كتاب.. والقراءة تحتاج إلى حافظ يقرأ، أما الكتابة فلا تحتاج حافظًا؛ لأن كل شيء مُسجَّل بالكتابة.. فإذا أردت أن تقرأ من الكتاب تستطيع أن تفعل ذلك في أي وقت دون حاجة إلى الحفظ.

والحق سبحانه وتعالى أراد بهذه التسمية أن يلفتنا إلى أن القرآن له وسيلتان من وسائل الحفظ.. فهو يحفظ في الصدور ويُسجّل في السطور. ولذلك حين بدأ تسجيل القرآن كتابة كان لا يكتب منه آية إلا إذا وجدت مكتوبة على جذوع النخل أو الجلود.. أو أية وسيلة من وسائل الكتابة الأخرى في عصر نزول القرآن . كان لابد أن تكون الآية مكتوبة ، وهناك اثنان على الأقل من الصحابة الحافظين لها .. إلا آية واحدة لم توجد إلا عند حافظ واحد فقط.

وهذه الآية هي الوحيدة التي شذّت عن القاعدة من أن تكون الآيات مكتوبة بواسطة كتبة القرآن في عهد الرسول .. ومكتوبة في صدور اثنين من الحافظين على الأقل.. وكان القياس يقتضي ألا تكتب هذه الآية . ولكن انظروا إلى المواطن الإيمانية يثقفها الحق سبحانه وتعالى في صدور المؤمنين ليكمل منهجه . هذه الآية لم يوجد من يحفظها إلا خزيمة بن ثابت .. وعندما ثار الجدل حول تدوينها .. ذكر قول رسول الله ﷺ : «من شهد له خزيمة فحسبه»(١).

شهادة خزيمة بشهادتين

وكان الرسول الكريم قد أعطى خزيمة بن ثابت وحده نصاب شهادة رجلين.. وقصته لها قصة.. أن رسول الله ﷺ ابتاع فرساً من أعرابي .. فاستتبعه النبي ﷺ ليقضيه ثمن فرسه ، أي يعطيه، فأسرع رسول الله ﷺ المشي وأبطأ الأعرابي ، فطفق رجال

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (٢/١٨/٢) والطبراني في معجمه الكبير (٤/١٠١/٣) عن عمارة بن خزيمة بن ثابت. قال الهيثمي في المجمع (٩/ ٣٢٠): رجاله كلهم ثقات.

يعترضون الأعرابي ليساوموه في الفرس. ولا يعرفون أن النبي ﷺ ابتاعه. فنادى الأعرابي رسول الله ﷺ وقال: إن كنت مبتاعاً هذا الفرس وإلا بعته (أي: هل تريد شراء الفرس أو بيعه) فقال النبي ﷺ حين سمع نداء الأعرابي: أو ليس قد ابتعته منك؟ فقال الأعرابي: لا والله ما بعتكه (أي: ما بعته لك).. فقال النبي ﷺ: بلى قد ابتعته منك. فقال الأعرابي: هلم شهيداً (أي ائتني بشاهد) فقال خزيمة بن ثابت: إني أشهد أنك بايعته (أي بعته لك)

ويهمنا أن نعرف الناس لما أقبل النبي ﷺ على خزيمة وقال: بم تشهد؟ (أي: كيف شهدت على هذا) ولم تكن موجوداً وقت المبايعة بيني وبين الأعرابي.. فقال خزيمة بن ثابت: بتصديقك يا رسول الله. (أي: هل نصدقك في كل ما تأتينا به من خبر السماء ونكذبك في هذه؟).. فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمة بشهادة رجلين. وكان خزيمة يدعى ذا الشهادتين. لأن رسول الله ﷺ أجاز شهادته بشهادة رجلين.

ولما بدأت كتابة القرآن وجدت الآية الكريمة

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣)﴾ [الأحزاب]

ولم توجد هذه الآية محفوظة إلا في صدر خزيمة بن ثابت، فأخذت شهادته بشهادة رجلين.. وتم تدوين الآية.

المعجزة والمنهج

وإذا أردنا أن نعرف القرآن التعريف المنطقي، فإنه لابد أن يخرج من كل تعريف بقياسات البشر.. فالناس ساعة يعرفون

شيئاً يقولون عنه كذا ، ونرسمه كذا إلى آخره . ولكننا لكي نُعرّف القرآن الكريم نقول : إن القرآن هو ابتداء من قوله تعالى ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) ﴾ [الفاتحة]

إلى أن نصل إلى قوله تعالى :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَٰهِ النَّاسِ (٣) مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦) ﴾ [الناس]

أي : أنه من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس.. على أن نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم قبل أن نقرأ أي آية من القرآن.. كما علّمنا الحق سبحانه وتعالى في قوله جل جلاله :

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) ﴾ [النحل]

لكن العلماء أرادوا التخفيف على الناس في اختصار تعريف القرآن الكريم . فقالوا : هو كلام منزل على محمد ﷺ بقصد التحدي والإعجاز ، ليبين للناس منهج الله . فالقرآن كان كتاب منهج سبقه ما أُوحيَ به من الله.. فالتوراة من الله.. والإنجيل من الله، والزبور من الله . ولكن الكتب التي سبقت القرآن كان مقصوداً بها المنهج فقط.

أما القرآن الكريم فهو المنهج والمعجزة الدالة على صدق رسول الله ﷺ . فالتوراة كانت منهج موسى ومعجزته العصا . والإنجيل منهج عيسى والمعجزة إبراء الأكمه والأبرص

إذن : المعجزة شيء والمنهج شيء آخر بالنسبة للرسل السابقين. ولكن القرآن تميز بأنه المنهج والمعجزة معاً . ذلك أن المناهج التي أنزلها الله على الرسل السابقين أنزلها على قيمة

تغييرها ولكن القرآن الكريم نزل على نية الثبات إلى أن تقوم الساعة

ولذلك كان لابد أن يؤيد المنهج دائماً بالمعجزة.. وذلك حتى يستطيع أي ولحد من أتباع محمد عليه الصلاة والسلام أن يقول : محمد رسول الله وتلك معجزته.. فمعجزة عيسى عليه السلام حدثت وانتهت لأنها معجزة مادية. مَنْ رآها آمن بها ، ومَنْ لم يرها فهو غير مقصود بها . ذلك أن المعجزة المادية مقصود بها تثبيت المؤمنين الذي يتبعون الرسول

ومعجزة موسى عليه السلام كانت العصا التي ضرب بها البحر فانشق نصفين.. ولكن أتباع موسى الآن لا يستطيعون أن يأتوا بعصا موسى ، ويقولون هذه معجزته.

إذن : فالرسل السابقون لرسول الله ﷺ كان لكل منهج ومعجزة.. كلاهما مُنفصل عن الآخر.. أما معجزة محمد عليه الصلاة والسلام فقد تميزت بأن المعجزة هي عين المنهج . والمنهج هو عين المعجزة . بحيث تكون المعجزة موجودة يمكن أن يشار إليها في أي وقت من الأوقات

أما المعجزات السابقة فكانت على قدْر أزمانها . مَنْ صادفها صدقها ، ومَنْ لم يصادفها إنْ شاء صدق ، وإنْ شاء لم يصدق.. ونحن نصدقها جميعاً ؛ لأنها ذُكرتْ في القرآن الكريم.

القرآن وقوانين الكون

وإذا أردنا أن نعرف معجزة القرآن . فلننظر مثلاً إلى عن قوانين الكون . كروية الأرض ذُكرت في القرآن . وكذلك دوران الأرض حول نفسها.. البداية الواحدة للكون وما يحدث في أعماق

البحار.. وغير ذلك مما لم يُكتشف إلا في القرن التاسع عشر والقرن العشرين جاءت في القرآن.. الحقائق العلمية التي لا يستطيع أحد أن يُكذّبها الآن ، لأنها أصبحت ثابتة الوجود أشار إليها القرآن.. لماذا؟

لأن رسالة القرآن إلى أن تقوم الساعة.. وما دامت رسالته إلى أن تقوم الساعة فسيظل القرآن معجزة إلى أن تقوم الساعة.. إذن: لابد أن يكون له عطاء جديد لكل جيل.. ويتناسب مع كل عصر، وهذه هي المعجزة.. وإلا لو أعطى القرآن إعجازه في قرن واحد ثم توقف استقبل القرون الأخرى بغير إعجاز. يكون القرآن لم يعط في عطائه.. ولابد للقرآن أن يظل معجزة.

ويقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ.. (٥٣) ﴾ [فصلت]

فما الذي يتبين لنا أنه الحق؟ إنه القرآن الكريم المعجزة الدائمة.. ولابد أن نلتفت إلى قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ.. (٥٣) ﴾ [فصلت]

لأن معنى هذه الآية أن الذين سيكشف لهم الله عن آياته في الكون هم من غير المؤمنين بالقرآن ، فالمؤمنون يعرفون أن القرآن حق ، وهم ليسوا محتاجين لآيات كونية لتعطيهم الإيمان.. ولكن غير المؤمنين ينكرون أن هذا القرآن حق.

والله سبحانه وتعالى حين يريد أن يظهر إعجازًا.. فإنه لا يمكن أن يأتي بمعجزة لا يعرف عنها الخلق شيئًا ، فأنت لا تتحدى

خبطاً في سرعة المشي . ولا خبطاً كبيراً ضعيفاً في حمل الأثقال. ولكنك إذا تحديت فلابد أن تتحدى معروفة من الناس فيما نبغوا فيه.

ولذلك إذا قلنا : إن القرآن جاء يتحدى العرب بإعجاز الأسلوب واللغة. فهذه شهادة للعرب على أنهم متفوقون في دنيا الكلمة.. وهنا عندما يتحداهم القرآن يكون هذا هو التحدي وهذه هي المعجزة. تحدٍّ فيما نبغوا وتفوقوا فيه. ولذلك كان لابد أن يكون العرب عندهم نبوغ الكلمة.. أي الأداء الجيد المعبر المستميل للكلمة.. وكان هذا مألوفاً عند العرب شعراً ونثراً وخطابة.

الرسول ليس بشاعر

فإذا نظرنا إلى موقع محمد ﷺ نقول: إن رسول الله عليه الصلاة والسلام عاش إلى سنّ الأربعين. لم يشتهر ولم يُعرف عنه أنه نبغ في شعر أو نثر مثل قُس بن ساعدة أو أكثم بن صيفي ، ومن هنا فإن حظ رسول الله ﷺ من البلاغة كان حظاً عادياً دون نبوغ.

ومع ذلك لقد جاءت رسالته تتحدى قومه في البلاغة واللغة.. ولو أنه ﷺ كان مشهوراً بالشعر أو النثر أو البلاغة.. لقالوا : إن القرآن عبقرية أدبية لمواهب كانت موجودة عند رسول الله ﷺ منذ الصِّغَر . ومواهب الناس تظهر عادة قبل العشرين أو قبل الثلاثين إذا كانت الموهبة متأخرة . ولكن الموهبة لا تظهر فجأة على الإنسان في سن الأربعين . ولا توجد عبقرية تتأخر أبداً حتى الأربعين.

فإذا فوجىء العالم بأن محمداً عليه الصلاة والسلام الأمي

الذي لم يُعرف عنه أنه خطب أو كتب أو قال شعراً.. أو أن له أي حظ في دنيا البلاغة.. ثم بعد ذلك يأتي بقرآن يعجز عنه أشهر البلغاء وأكثرهم موهبة في فن الكلام. وأن هذا الكلام المعجز قد جاء به رسول الله ﷺ وهو في سن الأربعين.. لا يستطيع أحد أن يدعي أن محمداً عليه الصلاة والسلام كان عنده الإعجاز اللغوي وحجزه عن الناس حتى سن الأربعين.. ثم بعد ذلك أظهره.

لماذا ؟.. لأننا نعيش في عالم أغيار يموت فيه الناس قبل سن العشرين وقبل سن الثلاثين وقبل سن الأربعين. فمن الذي أخبر محمداً أنه سيعيش إلى سن الأربعين . فقد مات أبوه وهو في بطن أمه . وماتت أمه وهو طفل صغير . ومثله من الكثيرات في حياته ، فمن يضمن أنه سيعيش إلى سن الأربعين . فيكتم عبقريته عن الناس ثم يظهرها في هذه السن . طبعاً مستحيل

ولذلك عندما جاء الكفار وحاولوا أن يطلبوا من محمد عليه الصلاة والسلام أن يُغيِّر في القرآن أو يبدله. نزلت الآية الكريمة

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) ﴾ [يونس]

ثلاثة أساليب مختلفة

ولو كان هذا القرآن من عند محمد لكان قابلاً للتغيير ولكنه محفوظ بحفظ الله له وتركيبه البلاغي والنحوي من المتكلم والمخاطب والغيبة والتقديم والتأخير . ومطابقة الكلام لمقتضى الحال والمجاز والكناية والحوار كل ذلك يدلُّ دلالة قطعية أن هذا

ليس من تأليف بشر ، وما ينبغي لبشر أن يأتي بأبسط سورة منه . ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. ولكن الحق سبحانه وتعالى يُعلمه ليرد عليهم بالحجة البالغة.. فيقول جل جلاله .

﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾ [يونس]

الله سبحانه وتعالى يُعَلِّم رسوله الكريم أن يرد على الكفار أنه عاش معهم أربعين سنة قبل الرسالة.. لم يشتهر بينهم بالخطابة ولا بالشعر ولا بالبلاغة. فلو أنهم فكَّروا بعقولهم لعرفوا أنه لو كانت عنده عبقرية لأظهرها منذ سنوات طويلة . ثم مَنْ ذا الذي يُنسب إليه الكمال فيرفض الكمال.. ويقول هذا ليس من عندي.. إن الناس تدعي كمالات للشهرة . فكم من إنسان رأى إعجاب الناس بعمل من الأعمال لم يعرف صاحبه فنسبه لنفسه بل إن الناس تتصارع على نسب الأشياء الجيدة لنفسها.

وكم رأينا نزاعات أمام القضاء بين أشخاص مختلفين كل واحد يدعى ملكيته لعمل جيد.. ثم مَنْ هذا الذي يبلغ العبقرية لتكون له ثلاثة أساليب متميزة مختلفة عن بعضها تماماً.. فأسلوب القرآن غير أسلوب الأحاديث القدسية. غير أسلوب الأحاديث النبوية

اذكروا لنا أي عبقري في الدنيا من يوم أن خُلقت إلى يومنا هذا له ثلاثة أساليب. لكل منها طابع مميز لا يتشابه مع الآخر وكيف يمكن أن يفرق رسول الله ﷺ بين القرآن وبين الحديث القدسي وبين الحديث النبوي إذا كان كل هذا من عنده؟ إن لكل شخص أسلوبه الذي يتميز به وأنت إذا كنت مُطلعاً في علوم

اللغة والأدب. فإنك بمجرد أن تقرأ الكلام تقول هذا كلام فلان لأن لكل شخص طابعاً يميزه.. فكيف استطاع رسول الله ﷺ أن يقسّم كلامه، فيقول: هذا قرآن، وهذا حديث قدسي، وهذا حديث نبوي.

إذن.. فاختلاف الأسلوب بين القرآن والحديث القدسي والحديث النبوي أكبر دليل على أن القرآن والأحاديث القدسية مصدرهما فوق بشريته حتى الحديث النبوي مصدره إلهي ومنطقه له.. لأن الشخصية الأسلوبية لأي إنسان هي شخصية مميزة.. ولا يمكن لإنسان أن ينفعل بأحداث الحياة فيكتب كل مرة بأسلوب مختلف تماماً عن الأسلوب الآخر.. أي.. يكتب اليوم بأسلوب. وغداً بأسلوب. وبعد غد بأسلوب.. ثم يعود بعد ذلك إلى الأسلوب الأول.

معنى الخلق العظيم

الحق سبحانه وتعالى حين كلف رسول الله ﷺ بالرسالة.. فبهرت الناس بهذا البيان المعجزة فأثار حيرتهم. وأرادوا أن يكذبوه فلم يعرفوا كيف يكذبونه. قالوا: ساحر.. ونقول لهم ببساطة: ما دام ساحراً وسحر القلب.. فلماذا لم يسحركم كنتم لتؤمنوا به؟

إن المسحور لا يملك إرادة مع الساحر.. ولو أن محمداً كان ساحراً ما تعذر عليه أن يسحركم كما سحر الذين آمنوا به.. إذن: هذا دليل على أنه ليس بساحر.

قالوا: مجنون. ونقول لهم: إن المجنون هو الذي يفعل الأشياء بغير رقابة، وبلا وعي.. ولكن رسول الله ﷺ على خلق عظيم.

ومعنى الخلق العظيم أن الأفعال تصدر عنه بيسر وسهولة وصدق.. لأن الإنسان غير الصادق لابد أن ينسى ما قاله، ويتخبط في كلامه . فيقول اليوم ما نفاه بالأمس . وينفي غداً ما يقوله اليوم.

ولذلك قيل . إذا كنت كذوباً فكُنْ ذكوراً.

أما الإنسان الصادق فإنه يرى الأشياء بطبيعتها . ولا يختلف قوله لأن الصدق عنده ملكة.. ما معنى ملكة؟.. أي يكون الشيء تلقائياً أو آلياً كما يُطلقون عليه الآن . أي أن الفكر لا دَخْلَ له فيه

إن الذي يتعلم مهنة التطريز مثلاً أول ما يبدأ يعطونه الإبرة أول الأمر يستغرق وقتنا طويلاً . ويُعيد العملية مرات ومرات ولكن عندما يعتاد على ذلك تتم هذه العملية بطريقة آلية أي بيسر وسهولة.. تماماً كالذي يتعلم قيادة السيارة. في أول الأمر يكون مُتخبطاً في حركات قدميه فبدلاً من أن يضع قدمه على البنزين يضعها على الفرملة أو العكس حركات قدميه غير متوازنة تجعل السيارة تندفع فجأة وتقف فجأة.. لا يجيد تقدير المسافات بينه وبين ما حوله.. فيصطدم بهذا ويصطدم بذاك.. فإذا تعلم قيادة السيارة قادها وهو يتحدث معك. وتتم كل هذه العمليات بطريقة تلقائية آلية دون فكر.

كذلك الأخلاق تصدر عنها الأعمال بيسر وسهولة ؛ لأن النفس انطبعت على السلوك الحسن انطباعاً يسَّر حركتها فيقال : فلان خُلقه الكرم ، أي يُخرج ما في جيبه بتلقائية ليعطيه للناس. ولا يفكر إن كان محتاجاً له أم لا . والذي خُلقه الصدق يقول الحق ولو على نفسه. والذي خُلقه الأمانة لا يمد يده إلى ما يملكه غيره ، ولو كان في قمة الحاجة

ورسول الله ﷺ شهد له أهل مكة جميعاً بأنه على خلق عظيم قبل أن يُكلف بالرسالة.. ولذلك اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى وهو يرد عليهم:

﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴾ [القلم]

وهل يكون المجنون على خلق عظيم؟ إن المجنون لا يكون على خلق أبداً.. أمامه مرة يتحدث معك . وبعد دقيقة واحدة وبدون مقدمات يقوم ليضربك أو يقذفك بحجر. وهو يضحك ثم يبكي بلا سبب مفهوم. وهو يهذي الكلام - ثم يقول عكسه. وأنت لا تستطيع أن تأمنه على شيء لأنه لا يدرك معنى الأمانة.. ورسول الله ﷺ شهد له أهل مكة جميعاً بأنه الصادق الأمين.

وكانوا يُودِعون عنده كل غالٍ ونفيس يخافون عليه ويُحكِّمونه في الخلافات التي تحدث بينهم.. كما حدث عند إعادة الحجر الأسود إلى مكانه في الكعبة. فهل هذه الأشياء تحدث من مجنون.. لقد كانوا كاذبين بشهادتهم هم أنفسهم. وتلك وهم يتخبطون لم يعرفوا ما الذي يقولونه. اقرأ قول الحق جل جلاله

﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ ..(٣٢) ﴾ [الأنفال]

انظر إلى المنطق المعكوس. كان المفروض أن يقولوا: إن كان هذا هو الحق فاهدنا إليه.. ولكنهم بدلاً من ذلك تمنوا الموت وفضلوه على الهداية.. فهل هذا منطق؟

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾

[الزخرف]

إذن.. فهم لا اعتراض لديهم على القرآن.. ولا أنه من عند الله.. ولكن اعتراضهم على من نزل عليه القرآن وهو رسول الله ﷺ. فلو نزل القرآن على زعيم من زعماء قريش لآمنوا به.. فهل هذا منطق؟.. يعرفون الحق ثم يرفضون الإيمان.

وهكذا نجد ان القرآن قد أحدث ضجة كبرى في النفوس عندما نزل.. فالمؤمنون به كانوا يزدادون إيماناً كلما نزلت آية جديدة. والكافرون كانوا يحاولون أن يطعنوا فيه.

الوحي والطبيعة البشرية

والله سبحانه وتعالى يعطي منهجه لرسله غيباً عن التلقي.. فلا يأتي الوحي للرسول ظاهراً أمام الدنيا كلها وإنما يأتيه خفياً.. وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا .. (٥١) ﴾ [الشورى]

فطبيعة التكوين البشري لا تحتمل أن تستقبل عن الله مباشرة.. ولذلك لابد من الوحي.. والوحي إعلام بخفاء.. أي أنه إذا جاءك ضيف وأنت لا تريد أن تقابله.. بإشارة خفية لخادمك يفهم منها قصدك، فيذهب ليقول للضيف.. إنك غير موجود.. هذه الإشارة لا يفهمها إلا أنت ومن اتفقت معه عليها.. أما باقي الحاضرين فما فعلته هو خاف عنهم فلا يفهمونه.. والله ـ كما قلنا ـ أوحى لغير الرسل.. أوحى للملائكة.. وأوحى إلى أم موسى.. وأوحى للنحل.. وأوحى للأرض.. هذا هو الوحي اللغوي.. أما الوحي الشرعي

فيكون وحياً من الله لرسله.. والله حين يوحي إلى بشر فهناك ثلاث طرق.. الطريقة الأولى في قوله تعالى :

﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا .. (٥١) ﴾ [الشورى]

أي يوحى إليه بالخواطر التي يريدها.. وقوله تعالى

﴿ أو من وراء حجاب .. (٥١) ﴾ [الشورى]

مثلما كلم الله موسى. وقوله جل جلاله :

﴿ أو يرسل رسولا .. (٥١) ﴾ [الشورى]

مثل جبريل عليه السلام.. إذن فالطريقة الأولى هي مطلق الإلهام . وذلك في قوله تعالى

﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا .. (٥١) ﴾ [الشورى]

أي مطلق إلهام. الله سبحانه وتعالى يقذف في قلبه الوحي فيقوم بما يطلب منه. ولكن هناك أشياء كثيرة تقذف في قلوب الناس.. وهناك شياطين يوحون لأوليائهم. فكيف نفرق بين الوحي من عند الله والوحي من عند غير الله ؟

نقول ساعة أن يأتي الوحي من عند الله تجد تسليما مطلقا في كل ملكات نفسك . ولا تجد أية معارضة في القيام بما أوحي إليك وإذا أردنا لهذا مثلاً نقرأ قول الحق سبحانه وتعالى

﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم .. (٧) ﴾ [القصص]

إيمان أم موسى عليه السلام

قل لي لو أن إنسانا جاء لأم وقال لها . إذا خفت على ابنك فألقيه في البحر. هل تقبل الأم هذا؟ . هل تنجي ابنها من موت مظنون قد يحدث أو لا يحدث. إلى موت محقق بأن تلقيه في البحر . ولكن أم موسى لم يتسع عقلها إلى أي فكر.. فمجرد أن

جاءها الوحي من الله وضعت ابنها في الصندوق وألقته في البحر، دون معارضة من ملكات النفس.. لأن الوحي الوارد من الأعلى لا يمكن أن تعارضه ملكات الأدنى.. ولكن بمجرد أن ألقت أم موسى بابنها في صندوق في البحر، أراد الله أن يُطمئن ملكات الأمومة في نفسها.. فأوحى إليها في قوله سبحانه

﴿ ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين (٧) ﴾

[القصص]

ثم يخبرها الحق سبحانه وتعالى وحياً.. أنه أصدر الأمر إلى الماء في البحر ليلقيه بالساحل، وأصدر أمره إلى البحر، فقال

﴿ فليلقه اليم بالساحل .. (٣٩) ﴾ [طه]

فكأنه يُطمئنها بأن الأمر قد صدر للبحر بأن يُلقيه إلى الساحل ويقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً .. (٥١) ﴾ [الشورى]

كل هذه الطرق الثلاث أوحى بها إلى رسل الله.. ولكن القرآن لم يأت وحياً بخاطرة، ولم يأت كلاماً من وراء حجاب، وإنما جاء برسول وهو جبريل عليه السلام، حتى يكون متميزاً .. وكان رسول الله ﷺ إذا جاءه الوحي يسمع صلصلة كصلصلة الجرس ويتغير شكله.. ويسمع حول رأسه دوياً.

إذن هناك تغيير في ذات محمد، بحيث لا يمكن أن يلتبس عليه أبداً وحي القرآن بأي خاطر آخر .. وهكذا كان القرآن ينزل ليس بطريقة الخاطر يقذف في النفس، ولا كلام من وراء

حجاب .. وإنما بملك وعلامات مميزة لا يوجد فيها شك.

ولذلك عندما نزل الوحي على رسول الله ﷺ أول الأمر تعب، وأجهد من لقاء بشريته بالملك. وعندما فتر عنه الوحي اشتاق إليه. وهكذا كان الوحي عندما يأتي .. يأتي بمشقة وتعب .. وعندما يذهب يترك رسول الله ﷺ حلاوة المأخوذ منه ويشتاق إليه.. وهذا الشوق يعطي للرسول الكريم طاقة يتحمل بها متاعب اللقاء بجبريل عليه السلام.

دقة الوحي الإلهي

انظر إلى الدقة في الوحي الإلهي. رسول الله ﷺ تنزل عليه سورة طويلة. ثم يذهب عنه الوحي فيتلو السورة على أصحابه ويقول .. أوحي إليّ كذا.. فيكتب من الصحابة مَنْ يعرف الكتابة الآيات التي نزلت. ثم يأتي وقت الصلاة فيقوم رسول الله ﷺ ويقرأ الآيات في الصلاة فتأتي طبق ما أوحي إليه .. ولو أن إنساناً تكلم معك وسجلت له كلاماً.. ثم طلبت منه بعد نصف ساعة أن يعيد نفس الكلام الذي قاله .. ربما قاله بالمعنى ولكنه لا يستطيع أبداً أن يقوله بنفس الألفاظ.. ولذلك مثلاً تنزل آية يقول فيها الحق سبحانه وتعالى

﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) ﴾ [لقمان]

وآية أخرى تقول :

﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى]

لو لم يكن هذا وحياً من الله .. وقرأنا تحفظه ذاكرة السماء لاختلطت الآيتان عند التلاوة .. ولو كان هذا اعتماداً على الذاكرة

ما كان يمكن أبداً التفريق بينهما . ولكنه وحي يأتي من الله . فينزل إلى النفس

بل إنه في الكتابة أيضاً.. فالقرآن له كتابة تعطيه قداسة خاصة . اقرأ آيات الربا في القرآن الكريم . كل كلمات «ربا» في القرآن مكتوبة بالواو إلا آية واحدة مكتوبة بالألف في قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس ﴾ (٣٩) [الروم]

لو أن المسألة كتابة كلمات لكتبت كلها بشكل واحد . اقرأ المعجم المفهرس في كلمة ﴿تبارك﴾ . تجد بعضها محذوفة الألف وبعضها بالألف.. اقرأ ﴿باسم الله﴾.. تجد بعضها بالألف وبعضها محذوفة الألف.. إذن . المسألة ليست كتابة كلام . ولكن كل كلمة نزل بها الوحي بشكل خاص وبأسلوب خاص . ولا تختلط آية مع آية . ولا كلمة مع كلمة. وصدق الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وما ينطق عن الهوى (٣) إن هو إلا وحي يوحى (٤) علمه شديد القوى (٥) ﴾ [النجم]

وإذا كنا نريد أن نتحدث عن الفترة التي قضاها رسول الله ﷺ في مكة قبل الهجرة. فقد كانت فترة مليئة بالصراعات.. وكانت فترة تحمل فيها رسول الله ﷺ والمسلمون الإيذاء المستمر .. وإيذاء النبي عليه الصلاة والسلام سببه أنه جاء بدعوة الخير . فأسرع جنود الشر ليؤذوا صاحب رسالة الخير.

إذن : فأمر طبيعي أن يكون لرسول الله ﷺ أعداء . الحق سبحانه وتعالى يعرض لنا هذه القضية فيقول

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا .. (١١٢)﴾ [الأنعام]

وكل منْ يحمل من العلماء رسالة رسول الله ﷺ ليبلغها إلى الأجيال التالية، إن لم يكن له أعداء يكون حظه من ميراث النبوة ناقصاً.. فإذا كان للداعية إلى منهج الله أعداء نقول له: لا تنزعج.. لا تطيش.. إن معنى وجود أعداء لك.. أن فيك كثيراً من آثار النبوة.. والداعية الذي لا عدو له لا يظفر من ميراث النبوة بشيء.. وعليك بقوله تعالى

﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٤٨)﴾ [الأحزاب]

وقد واجه النبي ﷺ عداوة قريش وإيذاءها، وواجهها بصبر الإيمان وباحتمال أقوى من الأحداث نفسها. ولقد حاولت قريش أن تمنع رسول الله ﷺ من أن يتحدث مع القبائل الوافدة إلى مكة في موسم الحج.. حتى تمنع انتشار الدعوة.

وأحستْ قريش بأن الخطر يتهددها ليس فقط في مكة.. ولكن في الجزيرة العربية كلها.. وأرادوا أن يضعوا النهاية كما يعتقدون.. نهاية محمد عليه الصلاة والسلام.. وأعدوا أقوى شباب قريش لهذه المهمة.. واعتقدوا أن هذا هو الحل الأخير الذي سينهي كل شيء.. ولكنهم وهم يدبرون نسوا أن لله أقداراً لابد أن تنفذ.. وأن الله ناصر رسوله ودينه.. ولن يتخلى عن محمد عليه الصلاة والسلام.. وأن الله سبحانه وتعالى عليم بما يدبرون.. بل عليم بما يُخفون في نفوسهم ولا تنطق به ألسنتهم ولكن كيدهم في تضليل والله من ورائهم محيط.

وتحقق وعد الله لرسوله ﷺ ، فأقام عدلاً ، وحطم ظلماً ، ووضع الأسس لمدنية العدل والتنوير قوامها :

١ - صلة الإنسانية بالخالق .

٢ - صلة الأخ بأخيه في العقيدة

٣ - صلة الإنسان بالإنسان

٤ - إقامة صرح العدالة الاجتماعية في المجتمعات كافة لتستقر الحياة في ظلال قوله تعالى .

﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم . (٢٤) ﴾ [الأنفال]

ثم جاء نصر الله المؤزر ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

---

* ـ أذيع على الأسس فضيلة الشيخ محمد المسراوي المفتش بالأزهر

الفهـرس

الصفحة

رقم الإيداع ٣٩٣٥/٩٦
الترقيم الدولي
I. S. B. N.
977 - 08 - 0804 - 0


محمد رسول الله